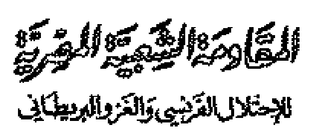
المقاومة الشعبية المصرية

للإحتلال الفرنسي والغزو البريطاني




المقاومة الشعبية المصرية
للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني

د. عصام محمد شبارو

المقاومة الشعبية المصرية
للإحتلال الفرنسي والغزو البريطاني




دار التضامن
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة

إذا كان لكل تاريخ محور، تدور حوله الوقائع وترتبط به الأحداث وتتحرك به أمة ما في فترة ما، لتسير به ومعه نحو تحقيق ذاتها وتأكيد شخصيتها الوطنية المستقلة في صراعها مع التحديات المفروضة عليها من الداخل والخارج؛ فإن المقاومة الشعبية المصرية ضد الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨ - ١٨٠١)، وضد الغزو الانكليزي (١٨٠٧)، وضد فساد نظام الحكم والإدارة العثماني المتوارث عن المماليك، ونشوء بوادر الحركة الوطنية المصرية منبعثة من وسط حطام القوى التقليدية القديمة آخذة في النمو التدريجي في نضالها ضد قوى الظلام التي فرضت عليها، يصح أن تتخذ محوراً ترتبط به أحداث التاريخ المصري الحديث والمعاصر، لأنها الحلقة التي ربطت ما بين وقائع الماضي وأحداث الحاضر فمكنت مصر من صنع المستقبل في سنة ١٩٥٢.

هذا ولقد مر نمو الحركة الوطنية المصرية ما بين (١٧٩٨ - ١٨٠٧) في مرحلتين تكمل بعضها بعضاً في أحداثها وفي منطق النضال الوطني:

- مرحلة المقاومة الشعبية للإحتلال الفرنسي (١٧٩٨ - ١٨٠١).
- مرحلة نمو الزعامات الوطنية في المدن وبخاصة القاهرة (١٨٠١ - ١٨٠٧).

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف أثرت هاتان المرحلتان في تغيير الحياة السياسية في مصر ودفعها في اتجاه بناء المرتكزات التي أسست عليها الحركة الوطنية «حركتها» المتكاملة في أوائل القرن العشرين؟ وبقراءة أوضح كيف ساهمت هاتان الحركتان في صنع التاريخ المصري الحديث وفي بلورة الفكرة العربية؟.

الإجابة على هذا السؤال كانت هدفي من وراء كتابة هذا البحث، ففي حدود هذا الإطار حاولت قدر المستطاع أن أحصر كلامي وتحليلي وتفسيري واستنتاجي

للوقائع والأحداث، بهدف وضع المقاومة المصرية في مكانها الصحيح من حيث الزمان والمكان، دون تحميلها تفسيرات من حاضرنا الراهن بل تفسيرها بروح العصر الذي ظهرت فيه، واعطائها بعض حقها بإظهارها الى السطح السياسي المعاصر لأنها كانت الأساس في البناء المتكامل للحركة الوطنية المصرية، ولأن الأساس دائماً لا يظهر للعيان.

هذا ولقد اعتمدت في بحثي على المصادر العربية التي تكاد تنحصر في كتاب عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وكتاب المعلم نقولا الترك «ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار العربية والبلاد الشامية».

والحقيقة أنني، في المدة التي قضيتها في كتابة هذا البحث، لم أعثر على مؤرخ عربي زمن محمد علي وحتى نهاية القرن التاسع عشر، قد أرخ للمقاومة المصرية (١٧٩٨ ـ ١٨٠٧)، فكل الذين تحدثوا عن هذه الفترة اعتمدوا على الجبرتي ونقلوا عنه حرفاً بحرف، ولهذا كانت معظم كتاباتهم ناقصة لأنهم اعتمدوا على راو واحد بدأ بكتابته في أوراق متناثرة سنة ١٨٠٥، ثم يعترف أنه بدأ في جمع هذه الأوراق وتنسيقها من حيث احداثها في سنة ١٨١١، أي بعد عشرة أعوام من خروج الفرنسيين وثلاثة عشر من دخولهم، فكان لا بد من وقوعه في بعض الأخطاء. وهذا طبيعي لأن الجبرتي في غير أحداث القاهرة حيث عاش، لم يكن يكتب التاريخ بأسلوب موضوعي وإنما كان يسجل الأحداث والروايات المنقولة والمتواردة، خاصة تلك التي وقعت في الوجهين القبلي والبحري زمن الاحتلال الفرنسي، أي أن كتابته عن أحداث مصر بدون القاهرة، كانت أشبه ما تكون باليوميات التاريخية إن لم تكن كذلك، وهو معذور في ذلك فهذا هو شأن مذكرات التأريخ المحلي «غير المقارن».

أما بالنسبة لكتابته أحداث القاهرة، فقد كانت أقرب إلى الموضوعية والإتزان من الأولى، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار «عجائب الآثار» إلى حد كبير تاريخاً للقاهرة أكثر مما هو تاريخ لمصر كلها.

أما المعلم نقولا الترك فقد أرسله الأمير بشير الشهابي الثاني إلى مصر لإيقافه على حوادثها إبان الاحتلال الفرنسي. وليس في مقدمة كتابه «ذكر تملك جمهور الفرنساوية»، ولا في خاتمته، إشارة إلى زمن وضعه، ولا إلى السبب الذي دعاه

للحضور الى مصر ولا متى رحل عنها. والجائز أنه لم يحضر الأيام الأولى من الإحتلال الفرنسي سنة ١٧٩٨، ولم يغادر مصر مع رجال الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ بل ظل مقيماً فيها حتى سنة ١٨٠٤، حين غادرها عائداً الى دير القمر في جبل لبنان. وهذا الكتاب جدير بالثقة في مواضع كثيرة، وخاصة في الحوادث والمسائل التي كانت في الجانب الفرنسي، والجالية الأجنبية في مصر.

كما استعنت بالمصادر الأجنبية وأهمها كتاب ريبو REYBAUD «التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية على مصر»، وكتاب آدر ADER «تاريخ الحملة على مصر والشام». وكتاب مانجن MANGEN «تاريخ مصر زمن حكم محمد علي»...

ومع هذا كله كان كتاب الجبرتي المصدر الأول الذي اعتمدت عليه، بعد معالجة بعض رواياته بحثاً وغربلة ومقارنة بينها وبين مادة المصادر الأجنبية، التي مع كثرتها فيما يختص بالحملة الفرنسية تنضح بالتحريف وعدم التقرير الحقيقي لأحداث المقاومة المصرية للإحتلال الفرنسي أو الغزو الانكليزي، لأنها تطمس هذه المقاومة بدفاعها عن الإحتلال الأجنبي ودور محمد علي منها.

وكذلك استعنت بالمراجع العربية والأجنبية لتوضيح بعض الأفكار والمقارنات ودعم بعض تفسيراتي واستنتاجاتي التي توصلت إليها.

ولا بد من الإشارة هنا بأنه مع كثرة المراجع العربية والأجنبية التي نقلت عن الأصول العربية والى حد ما الأجنبية بالنسبة لدور المقاومة المصرية، فإن مجمل حديثها جاء عبارة عن شذرات وتلميحات.

ومهما يكن من أمر هذا البحث، فإنه مما لا شك فيه يحمل في طياته بعض المآخذ ومنها أنني لم أتعرض للتطورات الإجتماعية والإقتصادية في مصر ما بين (١٧٩٨ - ١٨٠٧)، لأنها لا تدخل في صميم الموضوع المتعلق في الإشارة الى دور المقاومة المصرية في التصدي للاحتلال الأجنبي للبلاد. وكذلك لم أتعرض الى الحديث عن نظام الحكم والإدارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر ما بين (١٥١٦ - ١٧٩٨)، إلا بإشارات خاطفة كي لا أضيع في أمواج هذه الأبحاث التي ما

زالت تحتاج إلى الكثير من التفسيرات، ولكي لا يفلت الإطار الأساسي للبحث من بين يدي.

ومع هذه المآخذ كلها حاولت قدر استطاعتي أن أحافظ على الإطار العام الأساسي لموضوع البحث، في التنسيق بين فصوله مادة وخطة بروح أردتها أن تكون علمية وموضوعية تقترب من الحقيقة، لأن الحقيقة أجمل وأعظم وأسمى من كل زيف، إلا أن إنسانيتي ووطنيتي وقوميتي رغم هذا التحفظ كله كانت تظهر أحياناً في التحليل والتفسير.

وبعد،

أرجو أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه وعلى الله سبيل القصد.

د. عصام محمد شبارو

تمهيد

العرب من الشعوب السامية، نسبة الى سام بن نوح، ومنهم من انقرض مثل عاد وثمود وطسم وجديس، ومنهم من بقي مثل بني قحطان وبني عدنان. فالقحطانيون هم بنو يعرب بن قحطان الذي يقال إنه أول من تكلم بالعربية، واتخذ بلاد اليمن مسكناً. أما العدنانيون فينسبون إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام. وكان ابراهيم قد أنزل ولده اسماعيل مع أمه هاجر بمكة، حيث بنى الكعبة المكرمة(١).

وسواء كان العرب من الشعوب السامية، أو لم يكونوا سوى عرب، فإن مسكنهم وخروجهم كان بلا جدال من شبه الجزيرة العربية، وقبل ظهور المسيحية والإسلام. وأقدم الدلائل الأثرية على وجود العروبة سبق المسيحية تسعة قرون، وسبق الإسلام خمسة عشر قرناً(٢). فالعرب سكنوا سوريا وفلسطين والعراق وكانت لهم دولة الغساسنة ودولة المناذرة ودولة النبط. والسيد المسيح عليه السلام عاش بين القبائل العربية في الناصرة(٣)، وكانت جموع الفلاحين العرب تحتشد حوله في شمال فلسطين فيما كان اليهود معرضين عنه، وهكذا نشأت المسيحية في كنف العروبة التي استضافتها ورعتها وساعدت في انتشارها حتى ان أول امبراطور روماني اعتنق المسيحية هو فيليبوس العربي وفي عهده (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) كان أسقف القدس عربياً أيضاً، وتعاظمت مملكة تدمر العربية(٤).

---

(١) ثورة العرب ضد الأتراك، ص ٥٩، ٦٠.

(٢) فكتور سحاب: العرب وتاريخ المسألة المسيحية ص ١٠٥، ١٠٦.

(٣) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ١ ص ٥٥.

(٤) المرجع نفسه جـ ٣ ص ٩٧، ٩٨.

وكان الإسلام نتيجة لصحوة الأمة العربية[1]، كما كان يقظة ضمير قومي هو أعظم تعبيرات العروبة عن ذاتها. فقد استطاع النبي العربي الأمي محمد ﷺ، منذ أن هجر مكة المكرمة إلى يثرب (المدينة المنورة)، أن يحدث في تاريخ العرب وخلال فترة قصيرة (٦٢٢ ـ ٦٣٢) ما لم يحدثه غيره على الإطلاق. فقد جمع القبائل العربية بعد تفرقة، ووحد كلمتهم ولهجاتهم بالقرآن الكريم الذي أنزل باللغة العربية على لسانه، فكان رائد الوحدة العربية الأول. ولا غرو أن تؤكد ذلك الآيات: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى﴾[2]، ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾[3] ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[4]، ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[5]، ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾[6]، ﴿بلسان عربي مبين﴾[7]. كما نزلت الآية الكريمة: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾[8] وهي أخص من الآيات الناطقة بإنزال القرآن عربياً، لأنها صرحت بأن حكم هذا الدين عربي. وكانت مكة المكرمة والمدينة المنورة مهد العروبة والإسلام وأهلها هم السابقين إلى الوحدة التي انضوى تحت لوائها عرب الحجاز، فسائر عرب شبه الجزيرة العربية. ثم حمل العرب راية الوحدة زمن الخلفاء الراشدين (٦٣٢ ـ ٦٦١) حيث تهذبت اللغة العربية، بعد جمع القرآن الكريم وما فيه من فصاحة وبلاغة، وأخذت تنتشر مع الفتوحات العربية في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرتي قبرص وأرواد. وشارك النصارى العرب مع أبناء جنسهم المسلمين العرب في هذه الفتوحات، وفتح الأقباط أبواب مصر للمسلمين العرب. مما يعني أن الإسلام أعز العروبة وأنشأ لها استقلالها التاريخي ودولتها الكبرى.

ومع الدولة الأموية (٦٦١ ـ ٧٥٠)، أصبحت دمشق عاصمة العروبة،

---

(١) RABBATH: Mahomet, prophéte arabe et fondateur d'état. p 24.

(٢) سورة الشورى، الآية ٧.

(٣) سورة طه، الآية ١١٣.

(٤) سورة يوسف، الآية ٢.

(٥) سورة الزخرف، الآية ٣.

(٦) سورة الزمر، الآية ٢٨.

(٧) سورة الشعراء، الآية ١٩٥.

(٨) سورة الرعد، الآية ٣٧.

ورسخت اللغة العربية، وكان العنصر العربي هو أساس الحكم الذي تابع فتوحاته في شمال افريقيا ليمتد الى بلاد الأندلس.

وبقيام الدولة العباسية (٧٥٠ ـ ١٢٥٨) انتقل مركز القرار العربي إلى العاصمة الجديدة بغداد، وهنا تعرض العرب لتحديات الشعوب الأخرى التي انضوت تحت لواء الإسلام دون أن تتخلى عن قوميتها غير العربية ودون أن تتخلى عن لغتها لتنطق باللغة العربية، لغة القرآن الكريم. وكان التحدي الأكبر من الفرس وهم أهل مدنية وقومية قديمة استعان بهم الخلفاء في الفترة (٧٥٠ ـ ٨٤٧) فكان منهم الوزراء والقضاة والقواد والأمراء، وعندما ازداد نفوذهم استعان المعتصم العباسي بالأتراك لايجاد التوازن بين العرب والفرس، فأدت سياسته هذه إلى تغلغل النفوذ التركي وتسلطه على أمور الخلافة (٨٤٧ ـ ٩٤٥) ثم سيطرة النفوذ البويهي (٩٤٥ ـ ١٠٥٥) وقامت الدويلات المستقلة من الشرق إلى الغرب العربي. ثم قوي النفوذ السلجوقي (١٠٥٥ ـ ١٢٥٨).

وهذا يعني أن الفرس والأتراك كانوا في صراع مستمر حول السيطرة والنفوذ على العرب بدلاً من أن يذوب كل منهم في داخل الخلافة العربية، مع الاشارة الى أن الإسلام يجمع بين هذه الشعوب الثلاثة.

وبذلك يمكن القول أن ضعف السلطة المركزية كان نتيجة تفرق الوحدة العربية الكافلة لها من جهة ونتيجة تغلغل الفرس والأتراك من جهة ثانية، مما ساعد في تشكيل القومية العربية التي استجابت لتحدي القومية الفارسية ثم القومية التركية.

وقد نجح العدوان الصليبي على الشرق العربي (١٠٩٧ ـ ١٢٩١) وأسس مملكته حوالي القرنين من الزمان بسبب انقسام العرب سياسياً ودينياً، فظهرت الفكرة الاستعمارية الغربية بأوضح صورها عندما استهدفت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ ـ ١٠٩٩) الأماكن المقدسة عند المسلمين والمسيحيين وتم إنشاء مملكة بيت المقدس اللاتينية. واستهدفت الحملتان الخامسة (١٢١٧ ـ ١٢٢١) والسابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤) الاستيلاء على مصر، وحاولت الحملة الثامنة (١٢٦٧ ـ ١٢٧٠) الاستيلاء على تونس.

وكانت العبرة والدرس على يد صلاح الدين الأيوبي الذي وحد مصر والشام

وأعالي الجزيرة فكسبت العروبة عاصمة جديدة لها هي القاهرة بعد دمشق وبغداد، وتجلت الوحدة العربية بأحلى صورها لتنزل الهزيمة بالمستعمر الغربي المتستر وراء الصليب في الفترة (١١٧١ ـ ١١٨٩) حيث تحولت مملكة بيت المقدس منذ سنة ١١٩٢ إلى رقعة من الأرض على امتداد الساحل حتى سقوطها النهائي سنة ١٢٩١.

وانتهت الدولة العربية فعلياً أمام الغزو المغولي الذي أسقط بغداد ١٢٥٨، وبقيت هذه الدولة نظرياً وبصورة مزيفة في ظل حكم المماليك الذي زين بخليفة عباسي عربي بالإسم فقط ليستمر حكمه حتى سنة ١٥١٦ في الشام و١٥١٧ في مصر حين تحولت الخلافة العربية الإسلامية إلى خلافة عثمانية إسلامية مع الأتراك وقد دخلت عواصم العروبة مكة ودمشق وبغداد والقاهرة. . . .، تحت سيطرة الخلافة الجديدة التي لم يعهد العرب مثلها من قبل فهي تعتمد على عنصر غير عربي وعلى دولة وصلت الى درجة عالية ومكانة سامية من القوة الحربية وسعة الفتح والتغلب. فرضي العرب بسيادتها إما طوعاً وأختياراً وإما اضطراراً. ونامت القومية العربية في سبات عميق بعد أن سلبها الأتراك حقها في الخلافة. لكن الضعف ما لبث أن سرى في داخل دولة الأتراك العثمانيين ودب إليها الوهن لتعود الفكرة الاستعمارية الغربية تبدي أطماعها في الأقطار العربية وخاصة مصر التي استهدفتها الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) والغزو الانكليزي (١٨٠٧)، لتوقظ القومية العربية من سباتها العميق شيئاً فشيئاً، ومن داخل مصر التي أصبحت في مقدمة الأقطار العربية الداعية الى الثورة والتغيير وخاصة منذ أن قادت هذه الأقطار ضد أخطر هجومين واجهتها عبر تاريخها: الصليبيين والمغول.

هذا ولعل المامة قصيرة بأهم مميزات الادارة العثمانية من شأنها أن تلقي ضوءاً كاشفاً على أسباب تدهور الدولة العثمانية وانقلابها الى عبء على حياة التوازن الأوروبي بعد أن كانت ميزة. وتبلور الفكرة العربية من جديد للبحث عن مكانها الطبيعي الذي طمسته سيطرة ونفوذ غير العرب.

ويتلخص نظام الحكم والإدارة بأن الدولة العثمانية الثيوقراطية[1]، فيما كانت تحتل دولة ما، كانت غالباً تحصي القرى وتقسمها الى مقاطعات بعضها

(١) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص ٤٠ ـ ٥٠.

صغير ضيق يمنح الى الجنود المحاربين وبعضها كبير متسع يمنح الى القواد والأمراء ويخصص السلطان لنفسه المقاطعات الكبيرة، وعملية المنح هذه كانت تفويضاً من السلطان للعصبيات الحاكمة بحق جباية الضرائب والأعشار دون أن يكون لهم حق امتلاك هذه المناطق[1].

وعلى هذا الأساس كان الحكم العثماني في الشرق العربي غير مباشر إلا أنه يتفاوت في هذا من بلد إلى آخر. وقد ساعد على تقوية الحياة الدينية لسكان الشرق العربي، وذلك بتمسكه بأحكام ومبادىء الشريعة الإسلامية أساساً له، لأنها تجمع بينها في حين أن القومية تفرق بينها، رغم عدم بلورة الفكرة العربية في ذلك الوقت.

وهناك نوع آخر أيضاً كان في الشرق العربي يتمثل في الباشويات، كباشوية دمشق وبغداد والقاهرة. وحتى في هذا النمط من الحكم كانت الدولة العثمانية تعمل دائماً على الحد من نفوذ ممثليها. لذلك فقد تميز الحكم العثماني بالإضافة الى صفته الدينية بأنه كان حكماً عسكرياً، فالجيش كان أداة للحرب وأداة للحكم معاً[2].

ويمكن القول في نظام الحكم والادارة ان الدولة العثمانية، حين استحوذت على الولايات العربية، كانت دولة عسكرية ثيوقراطية إقطاعية. وقد ترتب على ذلك أن زحفت الرشوة والمحسوبية وبيع الوظائف الإدارية وحتى القضائية إلى أنظمة الدولة خاصة بعد سنة ١٥٦٦ حينما بدأ عامودها الفقري «الانكشارية» في التفكك مع نهاية عهد سليمان القانوني. فقد فاز الانكشاريون في ذلك العام بقوانين تسمح لهم بالزواج والاختلاط في المجتمع فأصبحوا بذلك طبقة وراثية متميزة عن غيرها، كما فقدوا روحهم العسكرية فأصبح همّ القادة العسكريين المحافظة على مكاسبهم السياسية الجديدة دون الاهتمام بالفتوحات الخارجية.

وبذلك أصبحت الدولة العثمانية عبئاً على توازن القوى الأوروبي مما أتاح للقوتين المجاورتين النمسا والروسيا التحرش بالدولة العثمانية منذ أوائل القرن السابع عشر[3] ليستمر بعد ذلك على يد القوتين انكلترا وفرنسا وخاصة منذ بروز المسألة

---

(١) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٢٩.

(٢) محمد انيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١٤٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ١٦٦.

المصرية على المسرح السياسي كعنصر جديد في الصراع الدولي «الأوروبي»، والمسـ الشرقية منذ أواخر القرن الثامن عشر[1]. وفي هذا كله، أصبحت الدولة العثمانـ «رجل أوروبا المريض».

ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أنه بينما كان الصراع الدولي «الأورو مفتوحاً أمام لعبة الأمم التي كانت دائرة حول مصر والشام خاصة وعلى غيرهـا ممتلكات الدولة العثمانية عامة، ظهرت بوادر حركات الاستقلال الصربيـ (١٨٠٥ ـ ١٨١٣)، واليونانية (١٨٣٢)، والرومانية (١٨٥٦ ـ ١٨٧٨) وغيرها، بد وتأييد هذا الصراع الدولي، وذلك بهدف استئصال الدولة العثمانية أو الجسم الغر عن الجسد الأوروبي.

وبنفس الاتجاه كان يمكن أن تفسر جميع الحركات في الشرق العربي، فالحركا التي ظهرت في جبل لبنان وفلسطين ومصر كانت مؤيدة من قوى الصراع الدو بهدف إحراج الدولة العثمانية وخاصة حركات الإنفصال الفردية، كظاهرة فخر الد المعني الثاني في النصف الأول من القرن السابع عشر والشيخ ظاهر العمر وعلي الكبير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومحمد علي باشا وبشير الشهابي الثاني النصف الأول من القرن التاسع عشر، والتي أعطيت من قبل البعض تسمية حركا وطنية إلا أنها لم تكن حركات وطنية صحيحة أو خالصة، بقدر ما كانت حركات فر متعددة تحمل مشروعات ذات طابع انفصالي عن السلطة المركزية التي أصيبـ بالضعف والإنهيار، حين اختل التوازن الذي كانت ترمي إليه قوانين السلطان السلطة المركزية ممثلة بالباشا من ناحية والحاميات العثمانية والعصبيات المحلية ناحية أخرى.

أما في مصر، فقد أدى انهيار السلطة المركزية ممثلة في سلطة الباشا العثماني طغيان سلطة الحاميات العثمانية في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وسلـ البكوات المماليك في النصف الثاني من هذا القرن.

وهنا تكمن خصوصية المقاومة الشعبية أو بداية الحركة الوطنية المصرية، ضـ قوى الصراع الدولي والدولة العثمانية وسلطة البكوات المماليك.

---

(١) زين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص ٢٢ ـ ٢٥.

وبهذا الفهم لهذه الخصوصية نستطيع القول أن الشعب المصري في مقاومته للاحتلال الفرنسي (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) وللغزو الانكليزي (١٨٠٧)، سطر سطوراً هامة من صفحات تاريخ نضاله الوطني المشرق، حينما امتدت مقاومته هذه لكل القوى فشملت مصر كلها من الاسكندرية الى القاهرة التي شهدت عدة تحركات، ولتشمل أيضاً الوجه البحري والوجه القبلي أي في صعيد مصر.

وقد أثمرت هذه الحركات الأولى في خلخلة الوجود الفرنسي في مصر، وساهمت مع الصراع الدولي في طرده من مصر سنة ١٨٠١.

كما أدت الى احتفاظ مصر بشخصيتها الوطنية التي لم يستطع لا المماليك ولا الحكم العثماني هزيمتها خاصة بعد استجابتها لتحديهم لها في سنتي ١٨٠٤ و١٨٠٥، وانتصارها على الغزو الانكليزي في رشيد والحماد سنة ١٨٠٧.

وبذلك برهن الشعب في استجابته لهذا التحدي الخارجي بأنه كان المحرك الحقيقي الذاتي لنضاله وكفاحه، بعكس الحركات الأخرى. ومن هنا تظهر أهمية هذه الحركة في نضالاتها الأولى لأنها أكدت على قوة الشعب في صنع تاريخه المتجدد المستقل، ولا ينقص من قدرها أنها تحركات بقوة الإسلام تدافع عن أرض الإسلام ككل ـ وأرضها الوطنية المصرية ـ مع أن هذا الشعور الوطني لم يكن قد تبلور تماماً في النفوس المصرية والذي بدأ بالنمو مع هذه المقاومة، على أساس أن كل ما عدا أرض السلطنة هو دار حرب، حتى تبلورت الفكرة العربية بعد ذلك.

فكيف حدث هذا كله أو بعض هذا كله؟

ذلك هو السؤال الذي ستكون صفحات هذا البحث، محاولة للإجابة عليه، في نطاق خصوصية كفاح شعب مصر في الفترة (١٧٩٨ ـ ١٨٠٧).

الفصل الأول

واقع الشعب المصري
قبل مجيء الحملة الفرنسية

دخلت مصر في ظل الحكم العثماني سنة ١٥١٧ باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال سلطنة المماليك. وقرر خضوع مصر للحكم العثماني مصير الخلافة العربية الإسلامية نفسها، التي تحولت الى خلافة إسلامية مع آل عثمان. فبدأ عهد جديد في تاريخ البلاد هو العهد العثماني ـ المملوكي غير العربي الذي استمر ثلاثة قرون (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) أي إلى وقت مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر.

ولم يكن في مصر، في ذلك الوقت، أكثر من ثلاثة ملايين نسمة، وقد بلغ عدد سكان القاهرة وحدها حوالي ثلاثمائة ألف. وكان السكان يتألفون من ثلاث قوميات مختلفة هي: العرب، الأقباط، الأتراك والمماليك. والعرب هم الذين افتتحوا مصر واندمج فيهم معظم السكان حتى أصبحوا يمثلون السواد الأعظم من الشعب المصري، في حين لم يزد الأقباط عن مائتي ألف نسمة[1].

رأى العثمانيون أن في وفرة خيرات مصر وتنوع مواردها وكثرة عدد سكانها وبعدها عن مقر الحكم في الأستانة ما يغري والياً ذا أطماع سياسية على الاستقلال بها. فوضعوا لحكم مصر نظاماً معقداً يستهدف ضمان بقائها ولاية عثمانية. وتمثل هذا النظام في ايجاد هيئات متعددة متباينة تشترك معاً في شؤون الحكم ويوازي بعضها بعضاً حتى لا تنفرد بالحكم هيئة دون الهيئات الأخرى[2]، وهي: الوالي (الباشا)، والحامية العثمانية، والبكوات المماليك. ويعتبر الوالي نائب السلطان العثماني في حكم مصر، وكان مقره قلعة الجبل في القاهرة، يعينه السلطان لمدة تتراوح بين سنة وثلاث

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ٨٦.

(٢) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٠.

سنوات نظير مبلغ من المال. لذلك قيل أن الباشا كان يشتري باشوية مصر[1]. ولم تكن الحامية العثمانية (رؤساء الجند) ذات صبغة عثمانية خالصة، بل كانت تضم عناصر من الأتراك والمماليك والعرب وقد بلغ عدد رجالها اثني عشر أو أربعة عشر ألفاً. وكانت الحامية مقسمة الى ست فرق تسمى كل فرقة «وجاق» وكان لكل فرقة ضباط يسمون «الوجاقلية» وكبيرهم يسمى «الآغا» أي رئيس الفرقة ونائبه يسمى الكخيا أو الكتخدا[2]. ثم أضاف السلطان سليمان القانوني أوجاقاً سابعاً من المماليك الذين طلبوا خدمة السلطان.

أما الهيئة الثالثة فقد أوجدها السلطان سليم الأول بجانب الوالي ورؤساء الجند لتحفظ الموازنة بين الاثنتين، وهي هيئة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان فعينهم حكاماً للمديريات، فقد كانت البلادُ مقسمة الى مديريات أو أقاليم تسمى كل مديرية اقليماً أو «سنجقية» يحكم كل منها حاكم يسمى «سنجق» أو «بك». ومن لفظة بك أطلق على هؤلاء المماليك اسم «البكوات المماليك».

وانقسم سكان مصر الى حكام ومحكومين. ويمكن القول أن المجتمع المصري تكون من قوى اجتماعية فوقية وهي الأقلية وتتألف من الأتراك العثمانيين وبكوات المماليك، وأخرى تحتية وفي مقدمتها طبقة المشايخ أو علماء الأزهر[3] والتجار ثم الفلاحين والصناع ومعظمهم من العرب. وكان الجهاز الحاكم في واد والشعب المصري في واد آخر، ولم يكن يربطه بالشعب سوى علاقة سطحية من الولاء للدولة ونظامها والشريعة الإسلامية[4].

ورغم عدم الشعور بالتباين القومي بين الحكام والمحكومين فقد كانت القوى التحتية، وغالبيتها من العرب، مغلوبة على أمرها ومحرومة من كل شيء في حين أن

---

(١) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ١٥.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث جـ ٢ ص ٨٦.
عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٧.

(٣) محمد انيس: التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، ص ٣٣ ـ ٤٨.
رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ٣٢.

(٤) عبد الكريم غرايبة: سورية في القرن التاسع عشر، ص ٥٦.

القوى الفوقية الحاكمة كانت تستحوذ على مغانم الحكم وتتمتع بالجاه والسلطان وتستبد بجماهير الشعب. وهكذا عاش الأتراك والمماليك في طبقة حاكمة متميزة تعتبر نفسها سادة للبلد وتعتبر المصريين طبقة محكومة مغلوبة على أمرها، مما أدى الى التنافر بين الطبقتين وانعدام الصلة الروحية والعاطفة الفكرية بين الحاكم والمحكوم. واهتم الحكام بجمع الأموال لأنفسهم حتى يعوضوا ما دفعوه من رشاوى في سبيل الوصول إلى مراكزهم وأهملوا مشروعات الإصلاح.

انتهى التنافس بين الحكام إلى تغلب سلطة «البكوات المماليك»، حيث أصبح المماليك القوة العسكرية الوحيدة في مصر[1] في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مما أفضى الى سيطرتهم على شؤون الحكم. وساعدهم على ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة وفساد الحكم فيها. وهكذا استأثر المماليك بحكم مصر ووصل الأمر الى حد القيام بحركة انفصالية كما حدث أيام علي بك الكبير (١٧٦٧ ـ ١٧٧٣) الأمير المملوكي الذي تحدى الدولة العثمانية وامتنع عن اداء مال السلطان، وطرد نائبه من مصر وقضى على خصومه المنافسين له، وكون قوة عسكرية كبيرة وأخذ يسير في الحكم سيرة الحاكم المستقل، ومد بصره إلى بعث النفوذ المصري في الحجاز والشام وإحياء تجارة البحر الأحمر[2]. ولكن عهد علي بك لم يطل وثبت ان نزعات التشتت كانت أقوى من جهوده في التوحيد وسرعان ما انقلب محمد أبو الذهب على سيده[3] علي بك الكبير وساعد الدولة العثمانية في القضاء على الحركات الانفصالية. وهكذا استطاعت الدولة العثمانية أن تتخلص من علي بك الكبير بالمؤامرات سنة ١٧٧٣. وبعد وفاة محمد أبو الذهب اشتد النزاع بين الأمراء المماليك في مصر[4] فابراهيم ومراد من جهة واسماعيل في جانب آخر. وعملت الدولة العثمانية على القضاء على هذه المنازعات وتوطيد سلطتها في مصر، فأرسلت إليها حملة بحرية يقودها قبطان البحر حسن باشا، ولكن الحملة لم تستطع أن تفعل شيئاً إلا أنها غلبت اسماعيل على منافسيه حتى إذا عاد

---

(١) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١٨.
(٢) أحمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٨.
(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٢٠.
(٤) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر، ص ٧٢.

حسن باشا إلى القسطنطينية عاد ابراهيم ومراد إلى الحكم بالقاهرة. واستمر الصراع بين الأمراء المماليك[1] فعاد اسماعيل وتولى مشيخة البلد ثم عاد ابراهيم ومراد مرة أخرى إلى الحكم بعد وفاة اسماعيل سنة ١٧٩١.

لم يكن من المنتظر أن يكون لدى هؤلاء «البكوات المماليك» أية رغبة في الإصلاح، بل تضافرت عوامل اختلال الحياة الإقتصادية[2] في هذا العهد المملوكي لدرجة كبيرة. وكانت هذه العوامل كثيرة منها تعدد أنواع النقد المتداول، وتغيير العملة المستمر، وانخفاض النيل وانتشار الأوبئة والطاعون، ثم انتشار المجاعات على الرغم من وجود كميات الحبوب الوفيرة، لأن المماليك كانوا يستأثرون بها لأنفسهم وجماعاتهم. وقد أدى ذلك إلى كثرة الوفيات كما حدث في سني ١٧٢٠، ١٧٤٤، ١٧٥٩، ١٧٨٣. وفتكت الأمراض والأوبئة بالشعب المصري، ففي سنة ١٧٩١ أصيبت البلاد بطاعون فظيع سماه أهل مصر طاعون اسماعيل لأنه وقع في عهد مشيخته[3]، وبلغ عدد الموتى في القاهرة نحو الألف في يوم واحد[4]، وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام، ومات به اسماعيل بك ومعظم مماليكه، ومات به من سكان القاهرة نحو ستين ألفاً خلال خمسة أشهر. ويقول الجبرتي أنه لم يبق للناس شغل في ذلك الوقت إلا الموت وأسبابه «فلا تجد إلا مريضاً أو ميتاً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً في تجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً»[5].

ومنذ أن استولى الأتراك على مصر سنة ١٥١٧، أصبحت جميع أراضي مصر ملكاً لسلالة آل عثمان، وبهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها. وكانت الأراضي مثقلة بالضرائب ومعظمها واقع على كاهل الفلاحين ولم تكن الحكومة تتولى مباشرة جمع الضرائب من الفلاحين وإنما كانت تعطي هذا الحق بطريق المزايدة لبعض الأفراد الأقوياء من بكوات المماليك أو رجال الحامية أو التجار أو

(١) عبد العزيز الشناوي، عمر مكرم، ص ١٨ و١٩.
(٢) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٣٥.
(٣) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١ ص ٤٦.
(٤) احمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٤٢.
(٥) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٢ ص ١٩١.

الموظفين أو مشايخ العرب. وهؤلاء يلتزمون تحصيل الضرائب من الفلاحين وهذا ما سمي بنظام الالتزام. على أن الملتزمين لم يكونوا أصحاب الأرض بتاتاً ومع ذلك استطاع الملتزمون الحصول على مكاسب طائلة جعلتهم في مرتبة ملاك الأرض الحقيقيين. وقد وضعوا نصب أعينهم أن يجمعوا من الفلاحين أكبر قدر ممكن من الأموال فاشتطوا عليهم في الضرائب وقد يدفع الفلاحون الضرائب أكثر من مرة.

وأما أمور الصناعة فكانت تجري على ما يرسم أهل الحرف في طوائفهم[1]. فقد كان المجتمع المصري في ذلك العهد منقسماً إلى طوائف وهيئات تتولى كل طائفة منها تدبير أمورها بنفسها، والدفاع عن مصالحها. فأهل الفلاحة يهيمن عليهم نظام الإلتزام، والمشتغلون بالصناعات في المدن منتظمون في طوائف الحرف المختلفة التي أطلق عليها «الأصناف»، وكان لكل حرفة أو «صنف» شيخ يهيمن عليها يتولى منصبه من الناحية الإسمية عن طريق الانتخاب ومن الناحية العملية عن طريق الوراثة فالإبن يرث أباه عادة في مهنته، وبذلك احتفظت أسر معينة بهذا المركز لها يتوارثه أبناؤها أباً عن جد.

وإلى جانب الشيخ كانت الطائفة تتكون من الاسطوات (جمع أسطى) الذين يملكون الحوانيت وأدوات الإنتاج، ثم الإجراء أو الصناع باليومية، وأخيراً الصبيان وكان الصبي يتتلمذ على يد أحد شيوخ الحرف أو اسطواتها فيتعلم أسرار الحرفة حتى يصبح صانعاً في احتفال يقام له في منزل والده حيث يعلن شيخ الطائفة دخول الصبي فيها[2].

كانت التجارة رائجة في مصر[3] وأصحابها من ثقات العرب وأصحاب الأمانة. وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال وفيها كانت ترسو المراكب حاملة البضائع على اختلاف الأنواع ومن بولاق تحمل إلى الخانات أو الوكالات[4] والفنادق، وهي عبارة عن طابقين يضم الطابق الأرضي عدداً من الحوانيت ومستودعات البضائع حيث كان التجار يحتفظون بسلعهم ويضم الطابق الأعلى مساكنهم. وكانت خانات القاهرة

---

(١) أحمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ٨٧.

(٤) كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٤٠١.

وفنادقها تـزدحم بالتجـار. وكان أمـراء المماليك ينافسـون بعضهم بعضاً في بنـاء هذه الخانات التي كانت تؤجر حوانيتها بإيجار مرتفع، ومن الخانات المشهورة: خان الخليلي وخان مرور وخان بلال وخان السبيل. أمـا أصحاب المصـارف والمـداينون والصيـارفة فكانوا من اليهـود ويقيمون عـائلات كثيرة في بيت واحد بحـارة اليهود ويضـطهدهم المماليك اضطهاداً شديداً[1].

وكانت مصر طوال العهد العثماني ـ المملوكي، منطوية على نفسها معتزلة العـالم الأوروبي الذي كان قد استيقظ من سبات العصور الوسطى على نهضـة أخذت تـدب في كيانه. ومن ثم عاشت البلاد في عـزلة فكـرية عن أوروبـا[2]. ومن مظاهـر ضعف الحياة الفكرية في هذه الفترة انتشار الطرق الصوفية، والحقيقة أن التصوف الذي انتشر في مصر العثمانية المملوكيـة كـان أقـرب الى الـدروشـة منـه إلى التصـوف النـظري أو الفلسفي، ومن هنا نستطيـع القول أن ظـاهرة التصـوف في هذا العهـد كانت ظـاهرة اجتماعية وليست فكـرية أو فلسفيـة وانها كانت تتصـل بالحيـاة الاقتصاديـة والسياسيـة بدرجة كبيرة. وتفسير ذلك أن الطرق الصوفية كانت الوسيلة للهـرب من ظلم الحكام وطغيـانهم، فلاذ المصريـون بالله والتمسـوا العدالـة فيما وراء الـدنيا حيث لا ظلم ولا طغيان كما هو الحال في الحياة الدنيا. فالصوفية في مصر العثمانية المملوكيـة هي هروب الفـلاحين التعسـاء من ظلم وجـبروت الملتزمـين وجباة الضرائب، وهي بشكـل أعم المقاومة السلبية للطبقات الفقيرة من الظلم الواقع عليها. ولم يكن جميع أرباب الطرق الصوفية مخلصـين في الزهـد والتقشف والعبادة، بـل على العكس خـرج البعض منهم على أبسط قواعد الدين والأخلاق والعرف والتقاليد، فكانوا يرتكبون المعـاصي وأبشع الجـرائم الخلقية، وكـان بعض أدعياء التصـوف يتخذون منـه ستاراً لابـتـزاز الأموال وللتمتع بنعيم الدنيا وبما لذ وطاب من المآكل والمشارب[3]. ومع أن بعض هؤلاء كانوا مخنثين وملحدين إلا أن أحداً لم يستطع أن يتعرض لهم بسوء إذ كـان أرباب التصـوف عموماً، سواء كانوا من الزاهدين والمتعبدين الحقيقيـين أو الأدعياء، قـوة يخشى بأسهـا وتتمتع بنفوذ كبير لدى الحكام والرعية.

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ٢٢٢.

(٢) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٧.

ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية التركيز بصفة مطلقة على علوم الدين دون سواها من علوم الدنيا. وللعثمانيين دخل في ذلك لأنهم عملوا على تشجيع هذا التيار تدعيماً للإسلام عامة وللمذهب السني بصفة خاصة وتقربوا الى العلماء الذين صار لهم نفوذ بالتالي لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية[1]... وبذلك تمتع علماء الأزهر بالأمن وبعض الثراء بفضل مكانتهم الدينية فتمكنوا من صد الظلم عن أنفسهم، كما تمكنوا أحياناً من حماية الشعب من الظلم الذي يتعرض له من قبل حكامه الأتراك والمماليك، فإذا ما ضج الشعب المصري واشتد الظلم يلجأ الى العلماء ويحتمي بالأزهر. وهكذا انتشر الجهل وأغلقت المدارس واقتصر التدريس في الأزهر على قراءة الكتب القديمة فقط، واختفت العلوم الطبيعية كالطب والرياضيات والكيمياء.

كان كل ذلك يجري دون تدخل الدولة لترسم سياسة معينة لشؤون الزراعة أو الصناعة أو التجارة أو التعليم... والدولة قانعة ببقاء كلمة السلطان تجري في مصر واسمه يذكر على منابرها مقروناً بالدعاء له بالعز والتأييد، ونائبه قائم في قلعة الجبل يستبد بالناس أو يستبد به القادرون من أصحاب القوة والنفوذ، وإلى خزانته في القسطنطينية تحمل فوائض الأموال مع كل عام. هذا الاسلوب في الحكم أدى إلى إهمال مرافق البلاد وذلك لعدم وجود سياسة عامة ترسمها الدولة[2] وتقوم على تنفيذها بل الأمر متروك للناس يديرونه على نحو ما اعتادوا أن يديروه، ولا نتيجة لهذا كله إلا الركود والجمود وتبديد الموارد وضعف الحماية.

وفي أواخر القرن الثامن عشر أثبت النظام العثماني المملوكي عجزه في تحسين الأحوال الاجتماعية للشعب المصري كما أثبت عجزه في الدفاع عنه وعن مصر، عندما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ والبلاد تعيش في ظلم اجتماعي وتأخر ثقافي وجهل صحي... وقد أثبتت الأحداث أنه لن يكون لمصر الأمل في الخلاص من الفساد أو الحظ من الرقي الا بالقضاء على النظام العثماني المملوكي وهدم هذا النظام القديم[3] من أجل بناء الدولة المصرية الحديثة.

---

(١) محمد أنيس: مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني، ص ١٤ - ٢٧.

(٢) أحمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٢٠.

(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٦٤.

تلك كانت حالة الشعب المصري قبل قدوم نابليون بونابرت وحملته الفرنسية لفتح مصر، بل لفتح أبوابها إلى العالم الأوروبي والسياسة الاستعمارية والمدنية الغربية أيضاً، وتلك كانت الدوافع السياسية والتاريخية التي جرت بسلسلتها الطبيعية الى الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨ ـ ١٨٠١)، وبالتالي إلى بلورة الفكرة العربية، بعد أن ثبت عجز القوميات الأخرى في الدفاع عن العرب وبلادهم.

الفصل الثاني

مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر

(١٧٩٨)

كان القرن التاسع عشر على وشك الإبتداء حينما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر[١]. والقرن التاسع عشر كان قرن الثورة الصناعية والتوسع التجاري في أوروبا التي تنبهت إلى أهمية موقع الشرق العربي، مما جعل الأنظار تتجه إلى إستعمار هذه المنطقة التي توجد ضمن إطار الدولة العثمانية... وكانت أمور الحكم في الدولة العثمانية قد أسلمت الى النساء والحاشية وعمت الرشوة وضعفت الرقابة وامتد الفساد الى الجيش وكثر النزاع بين الفرق العسكرية. وثبت أن العزلة التي فرضها الأتراك العثمانيون على الولايات التابعة لهم منذ القرن السادس عشر، لم تجد لمواجهة الأطماع الأوروبية منذ أواخر القرن الثامن عشر. وفي غمار هذه الموجة الإستعمارية، تجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨.

فما هي دوافع هذه الحملة؟.

يرى بعض المؤرخين أن الحملة الفرنسية كانت مغامرة عسكرية قام بها نابليون بونابرت ليشبع رغبة خيالية اختمرت في ذهنه، وأن حكومة الإدارة أرادت أن تبعده عن فرنسا وتتخلص منه. فيروى أن نابليون قال: «ليست أوروبا سوى تل صغير حقير، كل شيء هنا يبلى مع الزمن، لقد انقضى ما كسبت من مجد وأوروبا الصغيرة هذه لا تتيح مجالاً كافياً للأمجاد، فلا بد إذن من الذهاب الى الشرق لأن كل مجد عظيم لم يظفر به أصحابه إلا في الشرق»[٢]... فالموضوع الذي بقي يطوف في خياله هو فتح الهند. كما قيل: «أن عقارب الحسد لنابليون دبت في نفوس أعضاء الحكومة

---

(١) ادوار جوان: مصر في القرن التاسع عشر، ص ١١٧.

(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٩.

الجمهورية في ذلك الوقت فخافوا من اتساع شهرته، ومن مكانته في قلب الجيش الذي يقوده. . . رأت الحكومة في باريس فصله من جيش ايطاليا وأصدرت أمراً بتعيينه قائداً عاماً لجيش إنكلترا (أي الجيش الموجه لمحاربة إنكلترا)»[1].

من غير المعقول أن تغامر فرنسا بحملة كبيرة وجيش قوي مثل هذا لكي تتخلص من فرد واحد مهما كانت قوته ودهاؤه ووضعه، فهذه مسائل أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ولا تخلو من المبالغة. ومما يؤيد رأينا هذا أن حكومة الإدارة كانت راغبة في بداية الأمر عن الحملة على مصر لعدة دوافع، منها أنها بهذه الحملة ستبعد عن فرنسا جيشاً من خيرة جيوشها قد تكون في حاجة إليه إذا تجدد القتال بينها وبين أعدائها في أوروبا[2].

ومع ذلك فإنه من الواضح من جانب آخر أن بونابرت منذ انتصاراته الإيطالية قد ازداد اعتداداً بنفسه. بيد أنه كان لا بد من دوافع عميقة تجيز حكومة الادارة اخراج «جيش الشرق الكبير» مع صفوة قوادها وعلمائها الى مصر وهذه الدوافع ترتد في أصولها الى مسألتين أساسيتين: المسألة الاستعمارية ثم الصراع الفرنسي ـ الانكليزي حولها[3].

١ ـ المسألة الاستعمارية «تأسيس امبراطورية إستعمارية فرنسية شرقية»:

إن فكرة الحملة الفرنسية لم تنبت في رأس نابليون وحده بل كانت تتردد في الأذهان في مختلف العصور. ففي القرن الثالث عشر الميلادي تملكت هذه الفكرة مشاعر لويس التاسع ملك فرنسا مدفوعاً إليها بعامل الدين، فكانت الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٩) وقد انتهت بهزيمة الفرنسيين. ولم يكن غرض الاستيلاء على مصر في كل الأوقات موجهاً لها بالذات بل كثيراً ما كان للقضاء على نفوذ دولة من الدول أو عرقلة لنمو أمة من الأمم. وكان الألماني ليبنتز Leibnitz (ت ١٧١٦)[4] أول من فكر في ذلك إذ كان لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ يحارب بلاد الفلمنك (هولندة) التي

---

(١) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٣٦.
(٣) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٥٥.
(٤) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٦٧.

كان لها مستعمرات ومتاجر في الشرق والغرب. فكتب إليه يقول: «إذا كان مولاي يريد القضاء على هولندة فأحسن وسيلة لذلك هي ضرب هذه الأمة في مصر، هناك حيث يوجد طريق الهند، وحيث يمكن تحويل التجارة الهولندية الى طريق مصر». وفي خلال القرن الثامن عشر، كانت الفكرة بأذهان بعض رجال الدولة في فرنسا وترددت في تقاريرهم ومذكراتهم، ذلك حين أخذت الدولة العثمانية في الاضمحلال وطمعت الروسيا والنمسا في أملاكها، ففكروا في أن تشترك فرنسا في اقتسام الأسلاب وأن تكون مصر نصيبها من الولايات العثمانية.

فالدوافع الحقيقية للحملة الفرنسية على مصر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الاستعمار الفرنسي نفسه واتجاه الرغبة قبل خروج الحملة بزمن طويل نحو إحياء المستعمرات الفرنسية القديمة، أو بناء امبراطورية إستعمارية جديدة إذا كان ذلك الإحياء متعذراً. حتى إذا عجز الفرنسيون عن عقد الصلح مع إنكلترا التي ناصبتهم العداء وألبت عليهم الدول، صمم الفرنسيون على الانتقام من انكلترا سواء بغزو الانكليز في بلادهم أو بغزوهم في الهند أهم مستعمراتهم. فكان فتح ميدان الاستعمار الجديد في «الشرق» من الوسائل التي لجأ اليها الفرنسيون للاقتصاص من خصومهم[1].

وهكذا ارتأت حكومة لويس السادس عشر قبل الثورة الفرنسية ببضع سنوات أن تحتل مصر غنيمة لها من ميراث الدولة العثمانية، وفي هذا الصدد قال سارتين: Sartine وزير البحرية إذ ذاك في مجلس الوزراء: «ان احتلال مصر هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا في البحر المتوسط ومتى توطدت قدمنا في مصر، صرنا أصحاب السيادة على البحر الأحمر وصرنا نستطيع ان نهاجم انكلترا في الهند أو ننشيء في تلك الأصقاع متاجر ننافس بها الانكليز. . .»[2].

وكانت لتقارير وكتابات رجال السياسة الفرنسيين الذين خدموا في القسطنطينية أو القاهرة، ثم أولئك الرحالة الذين زاروا مصر أكبر الأثر في كشف القناع عن حالة الامبراطورية من جهة أخرى. وقد أقبل القوم على دراسة هذه التقارير وقراءة هذه الكتب بشغف عظيم عندما تجددت الرغبة في الاستعمار.

---

(١) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٢) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٦٨.

وأول ما يلفت النظر، التقارير التي أعدها قنصل فرنسا العام في القاهرة شارل ماغالون[1] Magallon. فقد وضع في ٩ شباط ١٧٩٨، تقريراً مفصلاً بحث فيه الموضوع من كل جوانبه فقال: «. . . إن احتلال مصر يمكن أن يتم بعدد قليل من الرجال (٢٠ إلى ٢٥ ألف مقاتل). . . ولا أظن أن الباب العالي سيغضب لهذا العمل غضباً يؤثر في علاقاتنا الودية معه لأنه في الواقع لا سلطة فعلية له على المماليك. . . . وإذا كانت حكومة الإدارة تأبى القيام بأي عمل لا يرضى عنه السلطان، ففي استطاعتها أن تقوم بهذه الحملة لحسابه وبعد أخذ موافقته عليها. ولكن في هذه الموافقة ما يحد من سلطتنا فيما بعد»[2]. وختم ماغالون تقريره بالكلام عن أهمية احتلال مصر بالنسبة لانكلترا وتجارتها في الشرق والهند. وأكد أن احتلال الهند وطرد الانكليز منها يصبح سهلاً بعد الاستيلاء على مصر[3]. ثم نصح بإلحاح بأن يبقى مشروع هذه الحملة، إذا تقرر القيام بها، سراً مكتوماً فلا تتمكن انكلترا من إرسال أساطيلها وفرق من جيوشها إلى الهند والبحر الأحمر لتعزيز مراكز دفاعها فيها. وهذا التقرير زاد الاقتناع بعدم المجازفة بإرسال الحملة الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، وبأن على حكومة الإدارة إذا كانت فعلاً ترغب في قطع وريد التجارة الانكليزية في الهند ان تحتل القطر المصري وتقضي نهائياً على المماليك.

فالنغمة السائدة في هذه التقارير كانت تدعي أن حكام مصر المماليك يعبثون بمصالح التجار الفرنسيين. ويرى أن احتلال فرنسا لمصر يضع حداً للعبث بالمصالح الفرنسية. وبين أهمية استيلاء بلاده على منتجات مصر وتجارتها، وكان في رأيه أن بوسع الفرنسيين أن يعملوا مباشرة من مصر على طرد الانكليز من الهند، أو أن يقنعوا بتعطيل تجارة الانكليز مع الهند ويستأثروا بهذه التجارة من دونهم[4].

وكان للاستيلاء على مصر مزايا واضحة، فمصر تهيمن على الطرق البرية إلى بلاد العرب والهند، وكان لفرنسا في مصر مصلحة أعظم مما كان لأية دولة أوروبية أخرى فلها قنصل عام يسكن القاهرة وقنصليتان في ثغري الاسكندرية ورشيد.

---

(١) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٩.

(٢) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ ١ ص ٦٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٤) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١٠٨.

لا غرابة إذاً إن رحب التجار الفرنسيين بتأييد فرنسي مسلح لهم، بل باستيلاء فرنسا على مصر دون تردد، تأميناً لحياتهم ومكاسبهم، فلقد كانوا أكثر تعرضاً للأخطار والمضايقات من إخوانهم في غير مصر من بلاد شرقي البحر المتوسط[1]. وكثيراً ما كان البكوات المماليك يضايقون التجار الفرنسيين، وبذلك يقول كلوت بك: «أما العلّة التي لأجلها ألفت حكومة الديركتوار (الإدارة) الحملة التي عهدت رآستها إلى نابليون من ٣٦ ألف مقاتل (الرقم الحقيقي ٣٦٨٢٦ مقاتل)، وأنفذتها إلى ضفاف النيل لإحتلاله، فهي أن المماليك كانوا يتصدون للتجار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتى علت أصواتهم بالشكوى والاستصراخ»[2]. وهذه كما نرى حجج ضعيفة لجأت اليها فرنسا لتبرر احتلالها مصر.

وهكذا تجيء الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨، وهذه الحملة لم تكن مرتبطة بكفاح فرنسا الثوري ضد انكلترا كما كانت تقول حكومة الإدارة في فرنسا قدر إرتباطها بتحقيق أهداف إستعمارية واسعة المدى لفرنسا. فالحملة الفرنسية ليست وليدة الثورة الفرنسية وضغوط نابليون، وإنما هي تتمشى مع سابق سياسة فرنسا التوسعية نحو الشرق[3]. وعندما جاء نابليون إلى مصر العاصمة الطبيعية للأمة العربية كما كان يسميها[4]، والركيزة الهامة لأي امبراطورية تبغي السيطرة على أوروبا وآسيا في وقت واحد، كان يهدف إلى امتلاكها امتلاكاً تاماً وجعلها مستعمرة فرنسية من أجمل مستعمرات العالم تعوض فرنسا عما فقدته في أميركا والهند، وتهيىء لها سبيل الاستحواذ على تجارة الهند.

٢ ـ الصراع الفرنسي ـ الانكليزي:

وهكذا، فإن مشروع الحملة الفرنسية على مصر لم يكن وليد الظروف الطارئة، ويرجع في الحقيقة الى ذلك الصراع الذي اندلع بين انكلترا وفرنسا في الهند. وقد شرح نابليون في جمل قصيرة الغرض السياسي الذي كان يرمي إليه بتنظيم حملة على

---

(١) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ١٨.
(٢) كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٨١.
(٣) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر، ص ٧٢.
(٤) محمد عبد السلام كفافي: المجتمع العربي، ص ٢٢٩.

مصر، فقال: «إن الغرض الأول من حملة الفرنسيين على مصر هو وضع شوكة الانكليز في الشرق إذ لا طريق غير وادي النيل للجيش الذي يناط به هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الأحوال في الهند. . . وكان بديهياً أن يقضي الاستيلاء على مصر إلى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية في أميركا والهند، وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا في مرافىء إيطاليا وجزيرة كورفو وجزيرة مالطا والاسكندرية، صار البحر المتوسط لا محالة بحيرة فرنسية»[1].

فالحملة الفرنسية إذاً هي دور من أدوار الصراع الذي قام بين فرنسا وانكلترا على الفتح والاستعمار. ذلك الصراع الذي يرجع عهده الى القرن السادس عشر واستمر في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ثم اتخذ طوراً جديداً بعد الثورة الفرنسية التي دكت معالم النظام القديم في فرنسا وكان من نتائجها سقوط الملكية وإعلان الجمهورية سنة ١٧٩٢ . ثم تألبت الدول الملكية في أوروبا بزعامة انكلترا على الجمهورية الفرنسية. ولما تم لفرنسا بواسطة نابليون الظفر على أعدائها لم يبق لها من الدول المنافسة سوى انكلترا التي كانت أقوى الحلفاء شكيمة، بقيت بحكم موقعها الجغرافي وسيادتها على البحار. ففكر نابليون في ميدان حرب يقهر فيه انكلترا ووجد أن مصر هي ذلك الميدان، أي محاربة انكلترا بقطع طريق متاجرها الهندية[2]، وهذا يعني ضرب انكلترا بطريقة غير مباشرة وذلك بتوجيه حملة إلى مصر[3].

ثم تجدد اهتمام الانكليز بمصر في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، لا على أنها سوق تجارية ولكن لعاملين جديدين: الأول وضوح ضعف الدولة العثمانية وضرورة تقدم فرنسا لنيل نصيبها من الغنيمة وهو مصر، والثاني ظهور أهمية مصر كحلقة في طريق المواصلات البرية ـ البحرية بين أوروبا والهند، ومن هنا اتجه التفكير الى إحياء الطرق البرية القديمة وأهمها طريق البحر الأحمر ومصر وطريق الخليج والفرات[4]. وكانت فرنسا قد جربت غزو انكلترا مباشرة في أواخر عام ١٧٩٦ وفي

---

(١) كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٨٢.

(٢) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٧٧.

(٣) HEROLD: Bonaparte In Egypt p. 3II.

(٤) أحمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٥٥.

أوائل عام ١٧٩٧ بإنزال حملة في ايرلندا وباءت هذه التجربة بالفشل[1]. إلا إن الرأي العام الفرنسي ظل متمسكاً بضرورة غزو الانكليز في بلادهم وإسقاط انكلترا من مصاف الدول الكبيرة، وإفساح المجال بفضل ذلك أمام فرنسا حتى تمتلك امبراطورية الشرق العظيمة. ولكن نابليون أدرك تعذر تنفيذ مشروع غزو انكلترا قبل تنظيم البحرية الفرنسية وتجهيز عدد كبير من السفن، لذلك اقترح على حكومته أن توجه أنظارها صوب «الشرق» وأن تسعى لغزو انكلترا بطريق غير مباشر هو تهديد مستعمراتها في الهند وذلك بإرسال جيش كبير لفتح مصر والاستيلاء عليها. وقدم تاليران وزير خارجية فرنسا تقريراً عن مسألة «فتح مصر» أعده في ١٣ شباط ١٧٩٨ استطاع أن يجمع فيه بين فكرة فتح مصر وفكرة التدخل في الهند، مشيراً الى سهولة فتح مصر[2]. وهنا فقط أخطأ تاليران عندما اعتقد أن الفرنسيين لن يلقوا مقاومة من جانب المصريين فقد ظل الشعب المصري يناصب الحملة العداء من وقت قدومها الى وقت خروجها.

٣ ـ مجيء حملة نابليون بونابرت إلى مصر (١٠ أيار / مايو ـ ٢ تموز / يوليو ١٧٩٨):

كانت الأحوال في مصر، تسير من سيء الى أسوأ، وتعلو صرخات الجالية الفرنسية الى حكومتها طالبة حمايتها من عسف الأمراء المماليك، واستطاع نابليون إقناع حكومة الإدارة بمشروع احتلال مصر بعد أن أصدرت قرارها بتاريخ ١٢ نيسان ١٧٩٨ بتسمية الجيش المعد للحملة «جيش الشرق»[3]، وأسندت قيادته الى الجنرال نابليون بونابرت. وأشارت في هذا القرار الى الخطوط الأساسية لسياسة «جيش الشرق» في مصر وهي: طرد الانكليز من كافة ممتلكاتهم في الشرق، وبسط السيطرة الفرنسية على البحر الأحمر عن طريق شق قناة في برزخ السويس، ثم العمل على تحسين أحوال المصريين والاحتفاظ بالعلاقات الودية مع الدولة العثمانية[4].

---

(١) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١٠٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٠.

(٣) أحمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٥٩.

عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١ ص ٧٧.

أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٨٣.

(٤) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١١١ ـ ١١٢.

ويستصحب نابليون معه إلى مصر حملة أخرى، تعتبر أول بعثة علمية رافقت حملة عسكرية في تاريخ الحروب، وكانت تضم ١٤٦ عضواً من العلماء الفرنسيين في مختلف العلوم والفنون. وكان هدف هذه البعثة العلمية، دراسة مصر بصورة شاملة توطئة لربطها بفرنسا الى الأبد، ومن مصر مركز الامبراطورية الفرنسية الشرقية الجديدة، كان نابليون يحلم بالزحف إلى الهند أو إلى القسطنطينية وقلب أوروبا، وإلحاق الضرر بالتجارة الإنكليزية، وشق قناة إن أمكن تصل البحرين المتوسط والأحمر[١].

أقلعت الحملة من ثغر طولون يوم ١٠ أيار ١٧٩٨، ورست بجزيرة مالطة يوم ٩ حزيران، فاحتلها نابليون بعد دفاع خفيف واحتل حصونها وقلاعها في ١٢ حزيران. وفي صبيحة ١٩ حزيران، تحركت الحملة من مالطة ووجهتها الاسكندرية وكان يتولى قيادة الحملة في البحر الأميرال برويس Brueys، وكانت مسؤوليته خطيرة لضخامة الحملة التي تألفت من ٥٥ مركباً حربياً و٢٨٠ نقالة تحمل ٣٦٨٢٦ مقاتلاً عدا الخيول والمدافع[٢]. ولما كان تفوق الأسطول الإنكليزي أمراً مسلماً به، فقد طلب نابليون من الاميرال برويس أن يعمل على تجنيب الاحتكاك بالاسطول الانكليزي، باتخاذ طريق غير مباشر من مالطة الى مصر. ذلك أن الجهة التي قصدتها الحملة بقيت سراً مكتوماً عن الجميع حتى إصدار نابليون منشوره الى الحملة الفرنسية. وقد كتب هذا المنشور وطبع في الباخرة أوريان في ٢٢ حزيران ١٧٩٨، ولكنه لم يوزع على الجيش الفرنسي إلا في يوم ٢٨ حزيران، قبل وصول الحملة الفرنسية بقليل الى سواحل مصر.

وهذا نص المنشور كما عرب[٣]:

من المعسكر العام على ظهر الباخرة أوريان ٤ مسيدور سنة ٦ للثورة[٤] من بونابرت عضو الانستيتوناسيونال، وقائد عام جيش مصر.

---

(١) ZAYID: Egypt's struggle For Independence P. 3.
KIRK: Short History of the Middle East p. 72, 73.

(٢) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٣٢.
عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٨٠.

(٣) مأخوذ عن أحمد عوض: فتح مصر الحديث ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٤) أسماء الشهور كما غيرتها الثورة الفرنسية وتوافق ٢٢ حزيران سنة ١٧٩٨.

أيها الجنود!

إنكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم على المدنية وتجارة العالم أجمع. وستضربون انكلترا ضربة حساسة في صميم فؤادها، على أمل أن تتمكنوا بعد من ايصال هذه الضربة للقضاء على حياتها.

سنضطر الى قطع مسافات متعبة على الإقدام، وسنقاتل في عدة مواقع، وسنفوز في جميع المعارك، لأن العناية معنا.

وبعد وضع أقدامنا في أرض مصر ببضعة أيام سنمحي من صحيفة الوجود أولئك البكوات المماليك الذين يعضدون التجارة الانكليزية دون سواها، والذين أهانوا تجارنا، وعاملوا سكان وادي النيل بالظلم والاستبداد.

واعلموا أن الشعب الذي سنعيش معه يدين بدين الإسلام، وأول قواعدهم (ان لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) فلا تعارضوهم في معتقدهم، وعاملوهم كما عاملنا اليهود والإيطاليين، واحترموا مشايخهم وعلماءهم، كما احترمنا الرهبان والقساوسة.

وليكن في نفوسكم من التسامح للتقاليد التي يقضي بها الشرع، وللمساجد، مثلما كان لكم من التسامح مع الكنائس والصوامع والبيع، ومع المتدينين بدين عيسى وموسى. ولقد كانت الجيوش الرومانية قبلكم تحمي الأديان وترعاها. وستجدون في هذه الديار عادات تخالف العادات في أوروبا، فلا بد من أن تألفوها وتعتادوها. واعلموا أن الناس الذين ستكونون بينهم، يعاملون النساء على غير مألوفنا، وقد أجمعت الأمم على أن من يتعدى على حرمة المرأة، إنما هو حيوان وبهيم.

وأما النهب والسلب، فلا يغني إلا فئة قليلة من الأفراد، ولكنه يحط من قدرنا، وينقص من شرفنا، ويبغض فينا قلوب الناس الذين من مصلحتنا أن نكون معهم على صفاء ووداد.

ولقد جئنا على هذا المنشور لدوافع كثيرة منها انه غير موجود باللغة العربية بخلاف المنشورات الأخرى التي عربت تعريباً قبيحاً، ونشرها الجبرتي وغيره، ومنها أنه يعبر عن عواطف نابليون وميوله الأولى قبل أن يحطم الانكليز أسطوله في أبي قير،

ومن هـذه الدوافـع أيضاً، رغبتنـا في تطبيق هـذه النصائح والإرشـادات التي وجههـا لجنوده على ما وقع منهم من الأمور المغايرة لروح هذه القواعد، أثناء وجود نابليـون في مصر، وبعد سفره منها.

ثم وصلت الحملة الفـرنسية تجـاه الاسكندريـة على الشـاطىء المصري يوم أول تموز ١٧٩٨، أي بعد شهر ونصف من اقلاعها من طولون على الشاطىء الفرنسي.

الفصل الثالث

مقاومة الاسكندرية للاحتلال الفرنسي

منذ الفتح العربي وبناء مدينة الفسطاط ثم القطائع ثم القاهرة، تراجع مركز الاسكندرية الحضاري[1] والاقتصادي والتجاري خاصة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح.

فليس بغريب إذاً أن تكون الاسكندرية عند وصول الحملة الفرنسية إلى مصر «قرية يأوي إليها القرصان»[2]، لا يتجاوز عدد سكانها الثمانية آلاف نسمة[3]، وأن تكون حصونها وقلاعها آيلة إلى السقوط.

وقد وصف الكاتب الفرنسي ڤولني Volney حالة الاسكندرية من الوجهة الحربية كما شاهدها في رحلته سنة ١٧٨٣، أي قبل مجيء الحملة الفرنسية بخمس عشرة سنة، فقال: «إنها من الوجهة الحربية لا قيمة لها ولا يوجد بها قلعة ذات شأن، أما قلعة المنارة بأبراجها العالية فإنها لا تصلح للدفاع، وان فرقاطة واحدة لتكفي لهدم المدينة».

أما الرحالة الفرنسي ساڤاري Savary، الذي زارها قبلاً في سنة ١٧٧٧، فوصفها بقوله: «إن قلعة المنارة لا تقوى على صد بارجة واحدة».

---

(١) تعتبر الاسكندرية أعظم وأخلد أعمال الاسكندر المقدوني في مصر، وأصبحت من بعده مركزاً ورمزاً لحضارة العصر الذي ابتدأه الاسكندر. و«البطالمة» خلفاء الاسكندر هم الذين منحوا الاسكندرية شخصيتها التاريخية التي عرفت بها على مر العصور.

مصطفى العبادي: مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربي، ص ٢٠ و٢١.

(٢) كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٤١٢.

(٣) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٥٧.

كما كتب جان بابتيست مور Jean Bapteste Mure، قنصل فرنسا في مصر، في تقريره الذي قدمه سنة ١٧٨٣ إلى الحكومة الفرنسية يرغبها في الحملة على مصر: «إن مرافىء الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح العثماني. أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها فخمة لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية، والمدافع الباقية فيها لا تصلح للضرب ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد»[1].

١ ـ احتلال الاسكندرية (٢ تموز / يوليو ١٧٩٨):

كانت الاسكندرية أول مدينة قصدتها الحملة الفرنسية، وهي كذلك أول من علم باقتراب الاسطول الفرنسي قبل أن يصل إليها، رغم تكتم نابليون عن وجهة حملته، فقد تسربت أخبارها إلى البلاد ولا سيما بعد أن وصل نبأ استيلاء الفرنسيين على مالطة في طريقهم الى مصر[2]. واستعد المصريون للمقاومة، ورممت الحصون البالية ولما لم يكن هناك جنود تقريباً فقد كون جيش من المتطوعين. ولكن هذه التدابير كان فيها من الحماسة المحمومة أكثر مما فيها من الفائدة الحقيقية[3]. وفي ٢٩ حزيران ١٧٩٨ بلغت الحملة الفرنسية الساحل المصري، فألقت مراسيها أمام الاسكندرية. واستدعى نابليون القنصل الفرنسي فيها «اليعازار ماغالون»[4] فأخبره أن أسطولاً انكليزياً مؤلفاً من أربع عشرة سفينة حربية بقيادة الأميرال نلسون، قد سبق الحملة إلى الاسكندرية وغادرها منذ ثلاثة أيام بـاتجاه أزمير للبحث عن الأسطول الفرنسي. وقد وصف المعلم نقولا الترك مجيء الأسطول الانكليزي: «وحين وصلت مراكب الانكليز ثغر الاسكندرية أرسلوا قارباً يطلبون حاكم المدينة، فتوجه الى مقابلتهم كمركجي الاسكندرية السيد محمد كريم الذي كان متروساً من قبل الأمير مراد بك. وبعد وصوله للمراكب سألهم عن سبب قدومهم فأخبروه أنهم طالبون العمارة الفرنسية لكي يصدوها عن الدخول إلى ثغر الاسكندرية، فارتاب السيد محمد كريم

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٦٣.

(٢) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ ١ ص ٨٩.

(٣) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٨٢.

(٤) اليعازار ماغالون: هو ابن أخ شارل ماغالون قنصل فرنسا العام في القاهرة.

وأجابهم أن الفرنساوية غير ممكن أن يحضروا لبلادنا، ولا لهم في أرضنا شغل، ولا بيننا وبينهم عداوة. . . وإن حضروا كما تزعمون فنصدهم عن الدخول. . . فأجابوه الانكليز أنتم لستم في هذا الحين كفوا لصد الفرنساويين. . . وفي الحال أقلعوا من مقابل الاسكندرية»[1].

وبعد سماع قول القنصل، قرر نابليون إنزال جنوده على جناح السرعة في أول تموز من جهة العجمي التي تبعد عن الاسكندرية غرباً نحو اثني عشر كلم[2]. وفي صبيحة يوم ٢ تموز، كان عدد الذين نزلوا بالبر نحو خمسة آلاف مقاتل حاصروا أسوار المدينة، ثم احتلوها في نفس اليوم. وهكذا سقطت الاسكندرية.

٢ ـ منشور نابليون الى المصريين (٢ تموز / يوليو ١٧٩٨):

كانت الاسكندرية أول مدينة مصرية نزلها نابليون وواجه فيها المصريين. ولما رسخت قدم الفرنسيين فيها نزل البر بعض رجال الحملة العلمية ومعهم المطبعة العربية. ثم أمر نابليون أن تنزل جميع المهمات العسكرية من خيول وأسلحة ومدافع وغيرها إلى البر سريعاً[3].

بدأ نابليون في تنفيذ سياسته التي حاول بها استرضاء المصريين، فرأى أن خير سياسة يتبعها نحو مصر هي أن يجامل الدولة العثمانية وان يجتذب إليه قلوب الشعب المصري ويتحبب إليه. وهكذا بادر عقب احتلاله الاسكندرية إلى دعوة مشايخ المدينة وأعيانها لمقابلته، وعقب اجتماعه بهم أذاع منشوره.

كان أول ما فكر به نابليون بعد نزوله الاسكندرية، طبع منشور باللغة العربية، كتبه هو بنفسه بالفرنسية ثم عربه بعض المستشرقين والتراجمة الذين أحضرهم معه، بلغة عربية ركيكة غير مضبوطة، وليست منطبقة على الأصل الفرنسي تماماً. وطبع هذا المنشور في المطبعة العربية التي أحضرها معه وتاريخه ٢ تموز ١٧٩٨.

---

(١) نقولا الترك: ذكر تملك جهور الفرنساوية، ص ٥٥.

(٢) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١١٣.
مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٢٩.
خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي جـ١ ص ٩٤.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث جـ٢ ص ٩١.

أما الأصل الفرنسي للمنشور فبليغ ومنشور في مراسلات نابليون (الجزء الرابع - وثيقـة رقم ٢٧٣٢) ولم نشأ أن نعـربه عن الأصـل لأن الصيغة العـربية التي نشرت في مصر أصبحت وثيقة تاريخية يجب المحافـظة عليها فـاضطررنـا ان نأتي عـلى نص هذا المنشور بحروفه وتعبيراته الشاذة الركيكة، كـما نقله الجبرتي، واعتمـد عليه المؤرخـون الحديثون على أن نشير إلى الفوارق بينه وبين الأصل الفرنسي[1].

وهذا نص المنشور بالعربية :

«بسم الله الرحمن الرحيم. لا إلـه إلا الله. لا ولد لـه ولا شريك لـه في ملكه. من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية[2].

والسر عسكر[3] الكبير أمير الجيوش الفـرنسية بـونابـرته ... . يعـرف أهـالي مصر جميعهم أنـه من زمن مديـد، الصناجق الـذين يتسلطون في البلاد المصريـة يتعـاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجـارها بـأنواع الإيـذاء والتعدي، فحضر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة طويلة هذه الـزمرة المماليك المجلوبـين من بلاد الابازة[4] والجراكسة يفسـدون في الإقليم الحسن الأحسن الـذي لا يـوجد في كـرة الأرض كلهـا، فأمـا رب العالمـين القادر عـلى كل شيء، فـإنه قـد حكم على انقضـاء دولتهم. يـا أيها المصريـون قد قيـل لكم انني ما نـزلت بهـذا القـدر إلا بقصـد إزالـة دينكم، فذلك كذب صريح فـلا تصدقـوه وقولـوا للمفترين انني مـا قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يـد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبـد الله سبحانـه وتعالى،

---

(١) نص المنشور بالحرف الواحد باللغة العربية.
الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣ ص ٤ ـ ٥.
وبـاللغة الفرنسيـة : REYBAUD: Histoire Scientifique et militaire de l'Expediton Française Vol III: P 150 - 153.

(٢) و (٣) كلمة التسويـة يقصد بهـا المساواة ومعـروف ان الحريـة والمساواة شعـار الجمهوريـة الفرنسيـة والسر عـسكر كلمة تركية معناها رئيس العسكر أو القائد العام. ومع ذلك نلاحظ أنه لا يوجد في مقدمة الأصـل الفرنسي ذكر لـ «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه» وليس فيها عبارة «من طـرف الفرنسـاوية المبني عـلى أساس الحـرية والتسـوية» بـل جـاء في أولـه: «من بـونـابـرت عضـو الانستيتو ناسيونال، والقائد العام، ثم يبدأ بـ «أنه من زمان مديد الخ»...

(٤) الابازة من شعوب القوقاز وجاء في الأصل الفرنسي للمنشور «المجلوبون من جيورجيا والقوقاز» وجيورجيا والقوقاز تقعان بين البحر الأسود وبحر قزوين.

واحترم نبيه والقرآن العظيم[1]، وقولوا أيضاً لهم أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط. وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب. فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان، والخيل العتاق، والمساكن المفرحة! فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعد لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء بينهم سيدبرون الأمور[2] وبذلك يصلح حال الأمة كلها، وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة، والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد، قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون[3] وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى، وضربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالرية[4] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه، ومع ذلك ان المماليك امتنعوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلاً إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم. طوبى أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين

---

(١) جاء في الأصل الفرنسي «وانني أكثر من المماليك احتراماً لله ولنبيه وللقرآن».

(٢) في الأصل الفرنسي «سيتولون الحكم Gouverneront».

(٣) ليس في الأصل الفرنسي مطلقاً قوله «ان الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون» والذي فيه هو Que nous sommes amis des vrais muslmans أي «اننا أصدقاء للمسلمين المخلصين» وهذا الخلاف جاء مقصوداً.

(٤) الكوالرية أو الكفاليري مأخوذة من الكلمة الفرنسية Chevaliers، وهم طائفة دينية تعرف بفرسان القديس يوحنا. وقد تولوا حكم مالطة منذ عهد شارلكان، ثم صار اسمهم فرسان مالطة. وقد انقضى حكمهم باحتلال نابليون لمالطة.

المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب. لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: ـ جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات[1] عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية: ـ كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار.

المادة الثالثة: ـ كل قرية تطيع العسكر الفرنساوي أيضاً تنصب صنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة: ـ المشايخ[2] في كل بلد يختمون حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة: ـ الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم، وعلى كل أحد من أهالي البلدان أن يبقى في مسكنه مطمئناً، وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة، والمصريون بأجمعهم ينبغي أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله اجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريراً بمعسكر اسكندرية في ١٣ شهر مسيدور[3] من إقامة الجمهور الفرنساوي يعني في آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية»[4].

وفي هذا المنشور أوضح نابليون السياسة التي عزم على اتباعها، فهو أراد أن يفهم المصريين أنه إنما جاء لمحاربة المماليك دون سواهم عقاباً لهم على معاملتهم

---

(١) في الأصل الفرنسي «ثلاثة فراسخ».

(٢) المقصود هنا مشايخ البلاد وكانوا بمثابة العمد (جمع عمدة) الآن.

(٣) الواقع انه ١٤ مسيدور سنة ٦ للجمهورية الفرنسية.

(٤) حقيقة التاريخ الهجري ١٨ محرم ١٢١٣.

الفرنسيين بالإذلال والاحتقار، واعتدائهم على التجار، واساءتهم الى أهل البلاد بالمظالم التي يرتكبونها. وأظهر أنه يحترم شعور الأهالي ويحترم الإسلام والنبي والقرآن الكريم.

كما تظاهر انه صديق السلطان العثماني حتى لا يستفز الشعور الديني في مصر[1]. ثم أشاد بعظمة مصر القديمة ونوه بما كان لها من حضارة وعمران. كل ذلك ليستميل إليه قلوب المصريين[2].

ولعل أهم ما تضمنه هذا المنشور وعد المصريين بتأسيس حكومة أهلية مصرية يدير شؤونها العلماء والفضلاء لإصلاح حال مصر كلها، وهذا أهم ما وعد به نابليون المصريين بهدف اجتذاب قلوبهم ومنعهم من مقاومة الحملة الفرنسية.

على أنه لا يفوتنا القول بأن منشور نابليون على ما فيه من الوعود والعبارات الجميلة، قد حوى مبدأ التهديد والوعيد وانذار المصريين باستهدافهم لأشد انواع الأذى إذا هم لم يذعنوا للحكم الفرنسي. لأن انذار القرى بحرقها بالنار اذا هي خرجت على الجنود الفرنسيين أمر لا يتفق والقواعد الإنسانية في معاملة الشعوب، وهذا وحده كاف ليصرف المصريين عن الاطمئنان لوعود نابليون، ولم يكن منهم إلا أن قابلوا هذا المنشور بالإذعان لا اقتناعاً به ولكن نزولاً على حكم القوة.

٣ ـ خطاب نابليون الى السيد محمد كريم (٧ تموز / يوليو ١٧٩٨)[3]:

كان آخر ما كتبه نابليون بالاسكندرية الخطاب الذي بعث به الى السيد محمد كريم، حاكم الاسكندرية عند قدوم الحملة الفرنسية، وقد استمات في الدفاع عن المدينة حتى استسلم في النهاية، وأبقاه نابليون حاكماً للاسكندرية. ويقول فيه:

المعسكر العام ـ ٧ تموز ١٧٩٨ ـ الى السيد محمد كريم

ولقد سر القائد سروراً كبيراً بحسن سلوككم منذ دخول الجيش الفرنسي، فلذلك يمنحكم وظيفة محافظ دائرة الاسكندرية وسنبعث لكم أوامرنا على يد الجنرال

---

(١) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٤٣.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٨٨.

(٣) هذا الخطاب محفوظ في وزارة الحربية الفرنسية ومراسلات نابليون وثيقة رقم ٢٧٨٥.

كليبر، قومندان عموم الجهة. وذلك لا يمنع السيد محمد كريم من أن يكتب للقائد العام في جميع الأحوال متى أراد. وعليكم أن تقدموا للجنرال كليبر كل ما يطلبه من مستلزمات الجيش الفرنسي وبوليس دائرة العربان».

«بونابرت»

٤ ـ مقاومة الاسكندرية وانبثاق الروح القومية:

كانت سنة ١٧٩٨: «أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع والنوازل الهائلة. . . وحصول التدمير وعموم الخراب»[١]، ذلك ان احتلال الاسكندرية كلف الفرنسيين بعض الثمن بالرغم من ضعف حاميتها[٢]. فقد بذل أهالي الاسكندرية ما في مقدورهم دفاعاً عن المدينة، فحصنوا الأسوار وركبوا المدافع القديمة على أسوار المدينة استعداداً للكفاح، وعهدوا الى جماعة من الفرسان مناوشة القوات الفرنسية قبل اقترابها.

وعندما بلغ الجيش الفرنسي الاسكندرية صمم حاكمها السيد محمد كريم على مقاومة الفرنسيين والدفاع عنها[٣]. وعندما أصدر نابليون أمره بالهجوم العام أخذ الأهالي يطلقون النار من المدافع المركبة على الأبراج والأسوار، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة، لكن الصمود لم يدم طويلاً فاقتحم الجنود الأسوار ودخلوا المدينة.

عندما دخل الفرنسيون المدينة كانت مقاومة الأهالي قد أنزلت بهم الخسائر، فهاجموا الناس في بيوتهم بعد أن اتخذها أهل الثغر متاريس لهم، كما يصف ذلك الجبرتي: «ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان وصاروا يطلقون النار على الفرنسيين في الشوارع ومن نوافذ البيوت»[٤]. وبذلك دفع الفرنسيون ثمناً معنوياً لا يستهان به، لاحتلال الاسكندرية ـ ثغر مصر، بلغ حوالي المائة والخمسين قتيل، وعدداً من الجرحى كان من بينهم الجنرال كليبر Kleber الذي أصيب بجرح في رأسه والجنرال منو Menou وقد أصيب في جملة مواضع[٥]. وكاد نابليون نفسه يصاب بطلق

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٢.

(٢) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٣٤.

(٣) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص ٨٧.

(٤) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٣.

(٥) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٣٥.

ناري في أحد شوارع المدينة الضيقة عند دخوله الاسكندرية لولا الحظ الذي نجاه من الموت، غير أن هذه المقاومة لم تستمر سوى ساعات قليلة[1].

وقد ظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتصماً بقلعة المنارة ومعه فريق من المقاتلين إلى أن كلت قواه ورأى المقاومة عبثاً لا يجدي، فكف عن القتال وسلم القلعة.

ومع ذلك فقد خشي نابليون حدوث المذابح في المدينة وهو الذي أعلن إنما جاء لمحاربة المماليك، فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم، فكف الأهالي عن المقاومة مذعنين للقوة القاهرة. وبذلك سلمت المدينة بقلاعها وأسوارها ومرافئها إلى الفرنسيين، ولم يكن بد من التسليم لأن قوة الدفاع كانت أضعف من أن تقاوم جيش نابليون وهو في عنفوان قواته[2].

ويمكن القول أنه لو كان السيد محمد كريم أو غيره في الاسكندرية واقفاً على شيء من حوادث أوروبا ومنازعات انكلترا وفرنسا، لأمد الأسطول الانكليزي بما أراد من ماء ومؤونة ولترك لهم حريتهم حتى يتخابر مع الحكام المماليك البكوات ونائب السلطان، ولو تم ذلك وبقي الاسطول الانكليزي ثلاثة أيام أخرى، لتغير مجرى أحداث الحملة الفرنسية.

كان الفرنسيون واهمين في تصورهم لاستقبال الشعب المصري لهم وترحيبه بهم. فالمصريون والفرنسيون كانوا مختلفين في كثير من النواحي ويمثل كل منهم حضارة ومجتمعاً وتفكيراً يختلف عن الآخر كل الاختلاف، وكان للمصريين، رغم الانحطاط الذي كانت عليه مصر حينئذ، تراث من التقاليد والعادات يغارون عليه ويعملون على بقائه كما كانوا لا يزالون يفكرون بعقلية مسلمي العصر الوسيط[3]، هذا التفكير الذي جعلهم يقبلون على الحكم العثماني، فكانت الحملة الفرنسية في نظرهم تمثل عدواناً مسيحياً على تراثهم العربي الإسلامي وعلى وطنهم الإسلامي، وعلى ذلك فقد ناصب المصريون أولئك «الكلاب الكفرة»، كما كانوا يدعونهم، العداء منذ نزلوا

---

(١) ADER: Histoire de l'expedition d'Egypte etde Syrie. P. 25 - 30

(٢) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٧٢.

(٣) كفافي: المجتمع العربي، ص ٢٣١.

أرض مصر. وهنا تظهر بذور وعي سياسي إلى جانب الوعي القومي. فنابليون قد استثار الروح القومية[1] في منشوره، فلم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن أشاد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد في البلاد. على أنه في الوقت نفسه قد أثار هذه الروح القومية باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها. فقد قبض نابليون على محمد كريم حاكم الاسكندرية عندما ظهرت كراهية الأهالي للفرنسيين، فعظمت منزلة محمد كريم في نفوس المصريين بسبب اعتقاله ثم نقل الى القاهرة حيث حكم عليه نابليون بالاعدام رمياً بالرصاص، فأعدم يوم ٦ أيلول ١٧٩٨، وكان إعدامه عملاً لا مبرر له[2]. وقد أثارت هذه الاعتداءات كراهية الأمة للاحتلال الفرنسي وحملتها على مقاومته بكل الوسائل فكانت هذه المقاومة هي النواة التي انبثقت منها الروح القومية شيئاً فشيئاً على مر السنين.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٥٢.

(٢) المرجع نفسه، جـ ١ ص ١٨٨ و١٩٠.

الفصل الرابع

ثورة القاهرة الأولى

(٢١ - ٢٢ تشرين الأول / اكتوبر ١٧٩٨)

وفي مساء ٣ تموز ١٧٩٨، بدأ زحف الحملة الفرنسية على القاهرة براً، بعد أن سلكت طريق الاسكندرية، دمنهور، الرحمانية، شبراخيت، ثم أم دينار على مسافة خمسة عشر ميلاً من الجيزة. وسارت قوة بحرية مؤلفة من مراكب الاسطول الخفيفة، في فرع رشيد من نهر النيل لتلتقي بالحملة البرية قرب القاهرة.

وكان طريق الحملة البرية شاقاً وصعباً لقي فيه الجنود ألواناً من التعب والجوع والعطش. وكانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسي في زحفه الى القاهرة، وفيها انتصر الفرنسيون على جيش المماليك بقيادة مراد بك في موقعة شبرا خيت (١٣ تموز ١٧٩٨)، واضطر مراد إلى التقهقر صوب القاهرة. وفي ١٩ تموز، وصل الفرنسيون إلى أم دينار(١).

١ - احتلال القاهرة ودور الشعب المصري في الدفاع عنها (٢١ - ٢٤ تموز / يوليو ١٧٩٨)(٢):

بعد أن انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع الى القاهرة أخذ يستعد للقتال في امبابة بالبر الغربي للنيل. أما ابراهيم بك فقد عسكر في بولاق على البر الشرقي للنيل. وبعد ظهر يوم السبت ٢١ تموز، استقر الجيش الفرنسي بالبر الغربي للنيل شمالي امبابة. وكانت الاهرام عن يمينه والنيل عن يساره وأمامه قرية امبابة، فلما شاهد نابليون عن بعد قوات مراد بك أراد أن يبعث الحماسة في نفوس جنوده

---

(١) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص ٨٩.

(٢) ٧ - ١٠ صفر ١٢١٣ هـ.

فخاطبهم قائلاً: «تقدموا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام»(١). وانتهت المعركة بهزيمة جيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلاً أو غرقاً في النيل، وشاهد الفرنسيون فلول الجيش المنهزم من الذين حاولوا النجاة بأنفسهم غرقى في النيل. واستولى الفرنسيون على امبابة وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والأسلحة والمؤن(٢). وانسحب مراد بك بفلول جيشه إلى الصعيد، في حين فر ابراهيم بك متجهاً الى سوريا وقد حمل أمواله ونفائسه(٣). وبذلك ترك أمراء المماليك سكان القاهرة وجهاً لوجه أمام القوة الفرنسية دون اتخاذ أي اجراء للدفاع عنها.

منذ أن وصلت القاهرة أنباء معركة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك الى امبابة كان أهل القاهرة، الذين طالما عانوا من ظلم المماليك، يتطوعون للدفاع عن العاصمة في وجه الجيش الزاحف. وظهر الشعب المصري في ساعة الخطر أشد حماسة من حكامه المماليك، فلبى الدعوة وأغلق الدكاكين والأسواق ثم خرج إلى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة. ويصف الجبرتي ذلك بقوله: «... ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر، فاشتد انزعاج الناس وركب ابراهيم بك الى ساحل بولاق وحضر الباشا والعلماء ورؤوس الناس، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا. ويتولى الاقامة ببولاق ابراهيم بك وكشافه ومماليكه... وفي يوم الثلاثاء ٣ صفر ١٢١٣(٤) نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس، وكرروا المناداة بذلك كل يوم، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق»(٥).

اشتركت طوائف الشعب في التطوع للدفاع عن القاهرة التي خلت طرقاتها وبيوتها وأسواقها من كل قادر على حمل السلاح، ولم يبق في المنازل أو الطرقات سوى النساء والصغار والمرضى. ولم يكن في الإمكان أن تنجح هذه التدابير في رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التي اكسبته النصر في أوروبا.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١ ص ٢٠٨.
(٢) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٤٠.
(٣) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص ٩٠.
(٤) ١٧ تموز ١٧٩٨.
(٥) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٦.

ومع ذلك لم يقصر أهل القاهرة في الدفاع عن مدينتهم، وإنما المقصر الأول عن ضعف المقاومة هم المماليك الذين قضوا السنين يتخبطون في الجهل والغباوة فأهملوا شأن الدفاع عن البلاد، وتركوا القلاع تتهدم وتتخرب وقد خلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب، حتى قلعة القاهرة لم تعد في عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة[1].

وهكذا أصبح الطريق مفتوحاً أمام الفرنسيين لاحتلال القاهرة. ولما خيم الليل بدأت أعمال السلب والنهب وأحرق قصرا مراد وابراهيم وباتت منائر القاهرة ينعكس ظلها بفضل اللهب الذي تصاعد من ٣٠٠ سفينة مملوكية[2]، أشعل المماليك فيها النيران قبل انسحابهم حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين ويعبروا بها نهر النيل[3]. وأخيراً قرر المشايخ والعلماء تسليم المدينة بعد وقوع الهزيمة في امبابه وفرار المماليك فأرسلوا الرسل إلى نابليون، وكان لا يزال في الجيزة، يستفسرون عن مقاصده ويطلبون «أماناً» لبعث الطمأنينة في نفوس القاهريين، فأجاب نابليون رغبتهم، فذهب المشايخ لمقابلته[4]. وفي ٢٤ تموز ١٧٩٨، دخل نابليون القاهرة من باب النصر[5].

وهل باستطاعة شعب أعزل أن يدافع عن كيانه أكثر مما فعل الشعب المصري في عهد الحملة الفرنسية؟! ومع ذلك هل استكان القاهريون للاحتلال الفرنسي؟. الحقيقة انهم لم يرضخوا للحكم الفرنسي إلا إذعاناً للقوة، وكانوا يتحينون الفرص للمقاومة. وقد سنحت لهم هذه الفرصة في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨، فقاموا بثورتهم الأولى.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي. تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١ ص ٢٠٤.

(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ١٣٨.

(٣) ADER: Histoire de l'Expedition d'Egypte et de Syrie P. 69.

(٤) REYBAUD: Histoire Scientifique et militaire de l'Expedition Française vol III p 211 - 214.

(٥) باب النصر: سمي بهذا الاسم تذكاراً لدخول السلطان سليم الأول إلى القاهرة ظافراً على المماليك سنة ١٥١٧ م.

ادوار جوان: مصر في القرن التاسع عشر، ص ١٣٢.

٢ ـ دوافع الثورة :

يخطيء من يظن أن الفرنسيين بمجرد قهرهم للمماليك في معركة امبابة واستيلائهم على مدينة القاهرة عاصمة الديار المصرية قد تملكوا هذه البلاد وخضع لهم فيها البعيد والقريب، والحقيقة أن الفرنسيين لم يستقر لهم في مصر قرار بغير حرب وقتال منذ وضعوا قدمهم فيها الى يوم خروجهم منها. وهكذا كانت ثورة القاهرة التي تضافرت عوامل عدة لتحريكها وأهمها : ـ

(أ) ـ ادعاء نابليون الاسلام وتجاهله العادات الشرقية :

لم يصدق المصريون ادعاء نابليون الإسلام، فلم يفلح في استمالتهم إلى تأييد حكومته على الرغم مما بذله من جهد كبير في اصلاح أحوال الشعب المصري. والغريب أن نابليون مع رغبته في الاستيلاء على مصر لم يحسن التصرف، فكان يصرح باحترامه الديانة الإسلامية وتأمين الأهالي على عاداتهم وأرزاقهم وأعراضهم، ثم يظهر تقربه منهم. إلا أننا لا نرى وجهاً يصوب ادعاءه الإسلام ادعاء لم يصدقه أحد من المصريين، ولم يزدد الناس بسببه إلا حذراً من الفرنسيين لأنهم لم يدعوا غير دينهم الا تقرباً منهم لغرض في نفوسهم يحاولون نيله[1]. كما تجاهل نابليون العادات الشرقية وأراد أن يجعل الشعب المصري بعد ما قاساه في أيام المماليك أن يسير على خطوات الشعب الفرنسي بعاداته وشرائعه وأزيائه. فأخذ الفرنسيون يخرجون النساء المسلمات مكشوفات الوجوه في الطرقات، ثم اشتهر شرب الخمر وبيعه الى العسكر[2]. وكذلك كان الجنود الفرنسيين يدخلون بيوت «الهوانم» اللواتي لم يجسر الباشا على أن يدخلها، وكان السبب في ذلك أن نابليون اجاز لرجاله الدخول في بيوت النساء للتفتيش عن أسلحة أو مخبآت أمور أخرى. فلا نعجب إذا رأينا الأهالي بعيدين عن الإخلاص له، ويترقبون فرصة لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمكنها من العسف والظلم لأنهم شركاؤهم بالدين، وهو أكبر رابطة بين الشرقيين. كما أمر نابليون بأن يلبس كل مصري شارة الثورة الفرنسية المثلثة الألوان[3] فأثار روح الكراهية منهم.

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ١١١.

(٢) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١٢٣.

(ب) ـ قسوة ومظالم الفرنسيين:

استعمل نابليون القسوة في إرهاب سكان القاهرة، فكان يبعث لقواده في الأقاليم يوصيهم باستعمال الشدّة ويقول لهم: «إنني هنا في القاهرة أقتل كل يوم ثلاثة، وآمر بأن يطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة وهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس وعليكم أن توجهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح»[1].

ومن المظالم التي أثارت الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطني الذي نفذ فيه حكم الإعدام يوم ٦ أيلول ١٧٩٨[2]. والواقع ان الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوبهم ويحملوهم على الاذعان. كما أمر نابليون بإزالة جميع الأبواب التي تفصل أحياء المدينة عن بعضها البعض تيسيراً للانتقال في القاهرة. وكانت هذه الأبواب تغلق في الليل فتصبح كل حارة بمأمن من اعتداء اللصوص. وكان الفرنسيون يقصدون من هدم الأبواب اخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة. وأمر أصحاب الحوانيت باضاءة مصابيح الشوارع طوال الليل أمام حوانيتهم، ثم أمر بهدم عدة بيوت وجوامع ومنارات في بركة الأزبكية بهدف توسيع الطرقات لمشي العربات بعد أن عاقت استحكامات القلعة التي وضع فيها مزيداً من المدافع وصوبها الى المدينة[3].

وكما يقول نقولا الترك: «... وكان المسلمون.. يستعظمون هذه الخطوب... فإذا شاهدت الإسلام هذا الاهتمام تحركت للقيام»[4]. ومن هذه الناحية تعتبر ثورة القاهرة أول ثورة للشعب المصري احتجاجاً على مظالم الفرنسيين وفظائعهم[5].

---

(١) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٤٩.
(٢) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٦٥.
(٣) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٦٥ ـ ٦٦.
كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ١٣٨.
(٤) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٦٦.
(٥) أمين سعيد: تاريخ مصر السياسي، ص ١٩.

(جـ) ـ هزيمة الفرنسيين في معركة «أبي قير» البحرية[1] (١ ـ ٢ آب / أغسطس ١٧٩٨):

تعتبر هزيمة الفرنسيين في أبي قير من أقوى البواعث الداعية لثورة القاهرة. وقد جرت المعركة بين الأسطولين الانكليزي بقيادة الاميرال نلسن Nelson والفرنسي بقيادة الاميرال برويس Brueys، في خليج أبي قير على مقربة من الاسكندرية. وانتهت المعركة بالقضاء على الأسطول الفرنسي فأغرق القسم الأكبر من السفن واستسلمت سفن أخرى ونجت ثلاث وحدات فقط[2]. وهذه الكارثة ترجع في عواملها الحقيقية إلى عدم مهارة الفرنسيين البحرية وتفوق الانكليز عليهم، ثم إلى حاجة الاسطول الفرنسي إلى الرجال المدربين والى الاستعداد والنظام.

لا شك أن الهزيمة في أبي قير حولت مجرى التاريخ، إذ أفسدت على نابليون ما كان قد وصفه من خطط لاحتلال الشرق والوصول الى الهند[3]، وأجبرته بعد أن قطعت عليه طريق المواصلات بين فرنسا ومصر على إعادة النظر في أمره والاعتماد في تموين جيشه وسد نفقاته على موارد مصر اعتماداً كلياً[4]. فلا غرو أن تشجع هذه الهزيمة سكان القاهرة على القيام بثورتهم الأولى.

(د) ـ السياسة المالية «الضرائب الجديدة»:

بعد هزيمة الفرنسيين في أبي قير تعطلت تجارة مصر عن طريق البحر المتوسط أو البحر الأحمر، بمحاصرة الانكليز لشواطئها. وكان نابليون يعتمد على موارد مصر للانفاق على جيشه وتجهيز الحملة على الشام، ففرض ضرائب على أهالي القاهرة ومدن مصر وقراها على طريقة جديدة حيث وضع مشروعاً يقضي بتسجيل عقود الممتلكات وجميع العقارات للتصديق عليها في مقابل ضريبة مخصوصة، ومشروعاً يقضي بتحصيل أموال عن المواريث والتركات. وهكذا خلص المصريون من ظلم فوضى ووقعوا في

---

(١) NELSON: The dispathes and Letters office Admiral Lord vescount Nelson vol. III P. 48 - 49.

(٢) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ١ ص ١٠١.

(٣) المرجع نفسه، جـ١ ص ١٠٣.

(٤) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٦٢.

ظلم منظم[1]، فقد أرهقت السياسة المالية كاهل المصريين فلم يجدوا فيها إلا وسيلة لابتزاز المال وتجريدهم من أملاكهم وتضييق سبل الكسب والعيش في وجوههم[2]. في جملة واحدة كان السبب المباشر لاشتعال ثورة القاهرة الأولى، كما يقول الجبرتي، هو تلك الضرائب الجديدة التي أمر نابليون في ٢٠ تشرين الأول ١٧٩٨ بفرضها على الأملاك والقضايا والمباني: كالحمامات والخانات والحوانيت والمقاهي وطواحين الغلال والمعاصر والبيوت والغرف[3].

وقد أوهم الفرنسيون الأهالي أنهم حضروا بإرادة السلطان العثماني، ولكن وبعد مرور ثلاثة أشهر على احتلالهم القاهرة، تأكد المصريون من خداع الفرنسيين لهم. وقد ذكر نقولا الترك ذلك بقوله:

«أنه بعد أن مكث الفرنساوية في المملكة المصرية مقدار ثلاثة أشهر كان المسلمون يظنون أن تورد لهم الأوامر من الدولة العثمانية بتقريرهم على المملكة حسبما كانوا يشيعون أنهم حضروا الى مصر بإرادة السلطان سليم... وقد كان يخبر أمير الجيوش بقدوم عبد الله باشا المعظم من الشام إلى مصر وأعد له منزلاً لينزل به وأمر بتدبيره وفرشه وإذ مضت المدة المعينة ولم يحضر أحد فتسبب من قبل ذلك أسباب كثيرة للنفور وايداع الفتن والشرور»[4].

وهكذا تضافرت جميع هذه الدوافع لتشعل بركان الثورة في القاهرة يوم الأحد في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨، بعد أن اتسعت هوة الخلاف بين المصريين والفرنسيين.

٣ - الأزهر يتزعم الثورة (٢١ - ٢٢ تشرين الأول / اكتوبر ١٧٩٨):

اتجهت الجموع الثائرة الى حي الأزهر، وامتلأت طرقات الحي بالجماهير المسلحة بالبنادق والرماح والسيوف والعصي، وهكذا اشتركت طبقات الشعب كلها في ثورة القاهرة بعد أن جمعت «لجنة الأزهر» حولها الغاضبين من الحكم الفرنسي

---

(١) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٢٣٥.

(٢) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ص ١٠٥.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٢٥.

(٤) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٦٤.

والكارهين له[1]. وكان رسل مراد وابراهيم يأتون الى الأزهر، وحول هؤلاء التف كافة المشايخ الذين استاؤوا من عدم استخدام نابليون لهم وأذاعوا أنه يريد ارغام المسلمين على اعتناق المسيحية. واجتمع دعاة الحركة طيلة الأحد ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨ لرسم الخطة الواجب اتباعها، وكان عددهم ثلاثين، فاتفقوا على البدء بالعمل في اليوم التالي بعد أن «أصبحوا يوم الأحد ١١ جمادى الأولى ١٢١٣، متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح»[2]، ثم انطلق الثوار إلى أحياء الفرنسيين لمهاجمتها واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم أحياء القاهرة واتخذوا مساطب الحوانيت متاريس أقاموها في الشوارع والحارات وأخذوا يطلقون النار من خلالها.

لم يقدر الجنرال ديبوا Dubois قومندان القاهرة خطورة الحالة في أول الأمر، ولكنه عزم على مجابهتها، ومضى في كتيبة من الفرسان قاصداً مركز الهياج «فمر بشارع العموزية وعطف على خط الصنادقية وذهب الى بيت القاضي، فوجد ذلك الزحام فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة، وتلك الاخطاط بالخلائق مزحومة، فبادروا اليه وضربوه وأثخنوا جراحاته وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه»[3] بعد أن خر ديبوا صريعاً بطعنة رمح في ثديه الأيسر.

اشتدت حماسة الثوار بهذا النصر الأول وازداد عدد الثوار بعد أن ظن الجميع أن القضاء على الفرنسيين أمر سهل، وهكذا وصلت الثورة ذروتها عندما احتشدت جموع الثوار في حي الأزهر، فأقاموا المتاريس في الطرق والأزقة الموصلة إليه.

تمكن نابليون من حصر الثورة في القاهرة بعد أن وزع جنوده في ضواحيها، وانتصر على الثوار في معظم أنحاء المدينة. فانحصرت الثورة في حي الجامع الأزهر وما حوله. وظهر يوم الاثنين ٢٢ تشرين الأول ١٧٩٨، «ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجروا عليه المدافع، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه... حتى تزعزعت الأركان... وأصمت الآذان بصوتها الهائل»،

---

(١) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ص ١٨٤.
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٢٦.
(٣) المصدر نفسه، جـ٣ ص ٢٦.

وأصدر نابليون أمره بأن يباد كل من في الجامع ودخلت الجند المسجد: «وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته... ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني... ورشقوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب... وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه»(١). وأحدثت المدافع تخريباً في الجامع الأزهر والبيوت القائمة حوله مما زعزع صفوف الثوار، فطلبوا الهدنة وانتهت المفاوضات بإلقاء السلاح ورفع المتاريس. وبذلك انتهت ثورة القاهرة بعد أن «مات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم»(٢).

٤ ـ نتائج الثورة:

رغم الثمن الكبير الذي دفعته القاهرة من أبنائها، فان هذه الثورة أدت إلى القضاء على آمال نابليون في التقرب من الشعب المصري الذي ازداد تماسكاً وقوة.

(أ) ـ الخسائر البشرية:

بلغ عدد ضحايا الثورة أربعة آلاف في حين بلغت خسارة الفرنسيين ٢٠٠ قتيل منهم جنرال واحد هو ديبوا وكولونيل هوسلكوسكي(٣) وبعض الضباط والمهندسين والباقي من الجنود. ويقدر نابليون في تقريره عدد من قتل من المصريين بنحو ألفين إلى ألفين وخمسمائة، وقدر خسارة الفرنسيين بنحو ستين(٤). ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو لافناء هذا العدد الكبير من السكان(٥).

(ب) ـ تحوّل السياسة الفرنسية من الترغيب الى الترهيب:

إن نتائج هذه الثورة كانت خطيرة فهي قد قلبت رأساً على عقب سياسة

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه، جـ٣ ص ٢٨.

(٣) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٧٩.

(٤) احمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٢٥٢.

(٥) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٢٨.

الفرنسيين القائمة على التودد الى الأهالي ومجاملتهم، فسلك نابليون منذ ذلك الحين مسلك الشدة والصرامة مع المصريين، فشدد في عقاب زعماء الثورة وأصدر أمراً في ٣ تشرين الثاني ١٧٩٨ لمعاقبة جملة من المشايخ الذين اشتركوا فيها بالإعدام ومصادرة ممتلكاتهم[١]، فقتل منهم ١٢ شيخاً دفعة واحدة وجعل جثثهم في أكياس ألقاها في نهر النيل. ثم منع بقية المشايخ من المباحثة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات على الشعب لأجل تسكين الثورة فسكن روع الشعب حسب الظاهر[٢].

لقد أسرف الفرنسيون في القتل ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء فقتلوا كثيرات منهن وجاوزوا الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب.

(جـ) ـ تلاحم الفئات الوطنية المصرية ضد المحتل الفرنسي:

لم يقتصر أمر الثورة على سكان القاهرة إذ كان من الطبيعي ان تنتشر الأخبار في المناطق المجاورة فيسارع الفلاحون والعربان لنصرة اخوانهم. وفعلاً قدم إلى القاهرة من جهة القليوبية عدد كبير من الفلاحين والبدو مما اضطر نابليون أن يبعث بفرقة من الخيالة تحت قيادة الجنرال دوماس Dumas لمقاومة الفلاحين بالقرب من بلدة القبة وعزبة الزيتون، فحال بينهم وبين القاهرة.

وبعد القضاء على ثورة القاهرة أصدر نابليون أمره بمطاردة العربان الذين اعتدوا على الجرحى القادمين من جهة الشرقية وفتكوا بهم أثناء ثورة القاهرة. فأحاط الجنود الفرنسيون بكثير من مضارب البدو، شرق القليوبية، وأحرقوا خيامهم وفتكوا بنسائهم وأولادهم وقبضوا على مائتين من رجالهم. وكان أمر نابليون قاضياً بذبح أولئك العربان ذبحاً وجز رؤوسهم، ثم جمعها في أكياس ليتفرج عليها أهل القاهرة[٣].

وبرهن الشعب المصري أنه يقاوم الاحتلال من أجل حريته وكرامته، وذلك بحمايته للفرنسيين العزل من السلاح، فهو لم يقاوم من أجل القتل بل من أجل حماية أرضه وشرفه. وقد اعترف بذلك «ريبو» قائلاً: «ان جميع الفرنسيين الذين التجأوا الى

---

(١) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٨٥.
(٢) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ١١٥.
(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٢٥٦.

بعض فئات المصريين من الطبقة الوسطى قد اطمأنوا على حياتهم وهذه صفحة بيضاء للمصريين. على الرغم مما ارتكبه العامة من فظائع في حق النصارى المحليين»[1].

وهذا ما دفع المسيو ڤيڤان دينون Vivant Denon وهو شاهد عيان لحوادث الثورة يقول: «لئن كان العامة وبعض الكبراء والاتقياء قد أظهروا قساوة في ثورة القاهرة، فإن الطبقة المتوسطة برهنت على أسمى عواطف الانسانية والمروءة رغم فوارق العادات والأخلاق والدين واللغة التي كانت تفصل بيننا. فبينما كانت صيحات التحريض على القتل تسمع من المآذن، وبينما كان شبح الموت والدم يتنقل في الشوارع فإن أصحاب المنازل التي كان يسكنها الفرنسيون قد آووهم وأظلوهم بحمايتهم وأمدوهم بما يحتاجون»[2].

(د) ـ القضاء على آمال نابليون في اكتساب الشعب المصري:

لا شك أن الفرنسيين بلغوا درجة قصوى من القسوة في إخماد هذه الثورة، وما فعلوه بالجامع الأزهر دليل على ذلك، ويتناقض مع ما ظل ينادي به نابليون مراراً من احترامه للدين الإسلامي وللعقائد الاسلامية، ويكشف زيف وخداع نابليون الذي شارك في الاحتفال الكبير الذي أقيم في القاهرة يوم ٢٠ آب ١٧٩٨ بمناسبة ذكرى مولد النبي الكريم[3]، فبرهنت الأحداث أنه يبطن عكس ما يظهر[4].

فما هو أكبر من خرق حرمة الأزهر الشريف وجعله اسطبلاً للخيول ومرحاضاً للجنود؟.

---

(١) REYBAUD: Histoire Scientifique et militaire de l'Expedition Française en Egypte vol III p. 139

(٢) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٧٩.
أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٢٦١.

(٣) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ٤٣، ٤٤.
محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص ٩٦.

(٤) وكذلك شارك نابليون في احتفال مولد النبي عام ١٧٩٩، وقد أرسل يطلب إلى حكام المديريات الفرنسيين توزيع المنشورات العربية على الأهالي لإخبارهم بالاحتفال العظيم الذي أقيم في القاهرة.
الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣ ص ٨١.
محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ١٦٦.

وأين هي الحضارة والأخوة والمساواة من إحراق بيوت عرب قليوب وخيامهم وذبح رجالهم وقتل نسائهم وأولادهم.؟ وأين هي الانسانية من هدم منازل القاهرة ومبانيها؟

وعلى أية حال فقد حاول الفرنسيون تبرير أعمالهم اللاإنسانية هذه بأن قانون الحرب يبيح لهم التصرف بقسوة من أجل الحصول على النصر بأسرع وقت وأقل التضحيات.

ومهما يكن من أمر فإن ثورة الشعب المصري في القاهرة قد باعدت بين المصريين والفرنسيين مما جعل الفرنسيين يقضون السنوات الثلاث (١٧٩٨ - ١٨٠١) في مصر دون أن يهدأ لهم حال. فالحكم الفرنسي كان إنقلاباً من نوع لم يعرفه المصريون، فلما زال حكم «مراد وابراهيم» حل محلهما «نابليون بونابرت»، ولم يكن مسلماً ولا عثمانياً. وكانت للفرنسيين طرقهم في مخالطة النساء، فقد أدى انتشار الجنود الفرنسيين في أنحاء المدن والأقاليم وتشتت أسرات الأمراء وانطلاق جواريهم عقب تركهم القاهرة، إلى ضروب غير مألوفة من الفساد والرذيلة. ولم يكن للحكم الفرنسي في مدته القصيرة من المآثر ما يحمل أهل مصر على الاغضاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعي، فقد كان حكماً عسكرياً شديداً ولم يكن الاصلاح الذي فكر فيه الفرنسيون وما استحدثوه من الدواوين وغيرها مما يجتذب إليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل[1].

وهكذا كره المصريون الاحتلال الفرنسي وقاوموه منذ أيامه الأولى. واستمرت المقاومة، بعد أن لعبت القاهرة دوراً رائداً لجميع الثورات والحركات الوطنية التي اندلعت في مختلف مناطق الوجهين البحري والقبلي في مصر.

---

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٢٣.

الفصل الخامس

المقاومة في الوجه البحري (الدلتا)

بدأت المقاومة المصرية في الوجه البحري قبل احتلال الفرنسيين للقاهرة في ٢٤ تموز ١٧٩٨، واستمرت هذه المقاومة، ولئن هدأت عقب احتلال القاهرة لكنها لم تستسلم للاحتلال الفرنسي. فما إن اندلعت ثورة القاهرة الأولى في ٢١ تشرين الأول ١٧٩٨، حتى انتقلت روح الثورة إلى الوجه البحري. ولا غرو في ذلك فالوجه البحري كان أول منطقة مصرية قصدتها الحملة الفرنسية التي نزلت على شواطئه، فكانت الاسكندرية أول مدينة يحتلها الفرنسيون في ٢ تموز ١٧٩٨، وفي ٩ تموز ١٧٩٨ قامت الحملة من الاسكندرية في طريقها الى القاهرة فاصطدمت بمقاومة المصريين في البحيرة.

١ ـ في البحيرة:

كانت البحيرة أول مديرية اجتازها الجيش الفرنسي في زحفه الى القاهرة، فلاقت من وراء اجتيازه أذى كبير من اعتداء الجنود ونهبهم القرى والمنازل[1]. ولكن ما لبثت المتاعب أن لحقت بجيش الاحتلال، فقد أخذ رجال المقاومة المصرية يتصيدون الدوريات الفرنسية ومنها دوريات كانت تحمل بريد نابليون[2]، وتعرض الفرنسيون لشدة العطش بسبب ردم العربان الآبار في هذه المنطقة التي وصفوها بالصحراء، مع أنه ليس هناك إجماع من قبل الجغرافيين على صحة هذا الوصف[3].

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٩٣.

(٢) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٣٣.

(٣) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ١٠٦.

وما إن وصل الجيش الفرنسي إلى دمنهور حتى أصدر نابليون أوامره بمواصلة الزحف إلى الرحمانية، التي شهد فيها الجنود الفرنسيون نهر النيل لأول مرة، فكانت فرحتهم كبيرة حتى إن الضباط والجنود خلعوا ملابسهم وركضوا إلى الماء يستحمون فلقي الكثيرون منهم حتفهم بسبب إسرافهم في شرب ماء النيل[1].

وفي ١٣ تموز ١٧٩٨، وقعت معركة شبراخيت بين جيش مراد بك وكان تعداده ١٢ ألف رجل، منهم ثلاثة آلاف من فرسان المماليك والباقون من الفلاحين المصريين الذين تسلحوا بالعصي والبنادق القديمة، وبين الجيش الفرنسي الذي كان ينقصه الفرسان، ومع ذلك انتصر على جيش مراد بك الذي يجهل الأساليب الحديثة في القتال. وتبين أن القسط الذي احتله الأهالي في هذه المعركة كان كبيراً بل كان أكبر من قسط المماليك[2].

ثم تابع الجيش الفرنسي زحفه قاصداً القاهرة وكان الأهالي يتعقبون فرق الجيش الزاحفة فيقتلون كل من يدركونه. ولقي الفرنسيون عناءً كبيراً في اجتياز هذه المرحلة، ومع ذلك قاموا بنهب عدة قرى في طريقهم إلى القاهرة.

ولئن هدأت المقاومة في البحيرة عقب ورود الأخبار باحتلال الفرنسيين القاهرة، فإن الأهالي كانوا يتحينون الفرص لمقاومة الفرنسيين وخاصة عندما علموا بنبأ ثورة القاهرة الأولى مما ساعد في تحركهم ضد الاحتلال الفرنسي في تشرين الثاني ١٧٩٨، فهاجموا قوافل الفرنسيين شمال البحيرة.

٢ - في رشيد:

تعتبر مدينة رشيد مفتاح النيل على البحر المتوسط، فهي تقع على الضفة الغربية من الفرع الغربي للنيل[3]، أي فرع رشيد، كما تعتبر طريق المواصلات النيلية إلى داخل البلاد. وكان عدد سكانها ١٣ ألف نسمة في حين أن الإسكندرية لم يكن بها سوى ثمانية آلاف. وكان لها أهمية حربية كبرى لأنها صلة الاتصال للجيش الفرنسي

---

(١) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ١٢٣.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ١٩٧.

(٣) كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٤٢٢.

بين القاهرة والاسكندرية عن طريق النيل، لأن المواصلات البرية كانت مهددة من جانب الأهالي في داخل البلاد.

احتل الفرنسيون رشيد في ٦ تموز ١٧٩٨ دون مقاومة، بعد أن هرب الحكام المماليك منها عندما علموا بنبأ احتلال الاسكندرية. وعين نابليون الجنرال منو Menou حاكماً لرشيد، فهدأت له الأحوال أول الأمر. لكن مركزه ازداد حرجاً بعد واقعة أبي قير البحرية (١ ـ ٢ آب ١٧٩٨)، لأن رشيد كانت من أولى المدن التي علمت بكارثة الأسطول الفرنسي وهزيمته في خليج أبي قير، كما كانت أكثر المدن تأثراً من وقوع هذه الكارثة، فأخذت روح المقاومة تقوى في نفوس سكانها.

وقويت روح الثورة في ضواحي رشيد في تشرين الثاني ١٧٩٨، وذلك في أعقاب ثورة القاهرة الأولى التي لعبت دور المصدر الرئيسي لسريان الهياج والثورة في أنحاء البلاد. كما كانت السفن الانكليزية والتركية توفد بعض الرسل إلى الشاطىء لتحرض الأهالي على الثورة[1]. وهكذا تكرر هجوم المصريين على قوافل الفرنسيين في جهات رشيد وأبي قير وشمال البحيرة.

٣ ـ في الشرقية:

فر ابراهيم بك بمماليكه عقب انتصار الفرنسيين في معركة امبابة (٢١ تموز ١٧٩٨) إلى جهة بلبيس عاصمة الشرقية. لكن نابليون وجد خطراً يتهدد مركز الفرنسيين من وجود هذه القوة في شرق الدلتا وعلى مسافة ٤٠ كلم تقريباً من القاهرة، فعزم على مطاردة ابراهيم بك ليخلص له الوجه البحري. أضف إلى هذا اقتراب وصول قافلة الحج ليكتسب نفوس المصريين والعالم الاسلامي، ثم ليقنع شريف مكة وعرب الحجاز واليمن أن وجود الفرنسيين في مصر لا يقطع سبل الحج الذي هو مصدر أرزاقهم[2]. بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحف يوم ٢ آب ١٧٩٨ من القاهرة، فاحتلوا الخانكة يوم ٦ آب. وفي الخانكة وثب الشعب على جنود الجيش الفرنسي واستولوا على سلاحهم وقتلوهم، فانسحب ٦٠٠ جندي من المنطقة إلى المرج

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٢٤٧.
(٢) المرجع نفسه، جـ ١ ص ٢٤٩.

وطلبوا النجدات، ثم كروا عائدين الى الخانكة فإذا هي خالية فأشعلوا في البلد النار.

وتوالت التقارير على نابليون، وكل الدلائل تدل على أنه لا بد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات. سار نابليون نفسه إلى بلبيس ثم أسرع إلى الصالحية متعقباً بعض فلول المماليك دون أن يصحب سلاحه الثقيل معه، وكاد نابليون وقوته أن تدمر في هذه الملحمة التي استعمل فيها السلاح الأبيض لولا أن أدركته النجدات، وقتل وجرح من الفرنسيين عدد كبير من بينهم ضباط كبار[1]. ترك نابليون هذه الحملات التأديبية لقواده، وعاد الى القاهرة بعد أن أمر بأن تكون بلبيس مركزاً عسكرياً رئيسياً.

ولكن وفرة القوات الفرنسية لم تمنع الأهالي من تكوين قوات فدائية[2] أخذت تغير على المعسكرات راكبة خيولها، وألزمت قوات العدو بأن تحتمي ببيوت بلبيس نفسها حتى أقبل المدد، وبدأت المدفعية تعمل عملها في رد جموع الفرسان المصريين وبلغ عنف المعارك أن نهب المعسكر الفرنسي الرئيسي أكثر من مرة، وعلى الرغم من أوامر نابليون باستعمال منتهى الشدة في أخذ الرهائن وإعدامها وإحراق القرى، فإن مقاومة الشرقية حملت قائد بلبيس أن يفاوض زعماء الثورة في الصلح، ولكن أحداً لم يقبل منه أقل من اخلاء المنطقة كلها. واستمرت الاضطرابات في الشرقية وخاصة بعد اندلاع ثورة القاهرة الأولى.

٤ ـ في المنوفية والغربية:

عين نابليون الجنرال زايوتشك Zayouchek قومنداناً للمنوفية، والجنرال فوجيير Fugières قومنداناً للغربية.

(أ) ـ مقاومة غمرين وتتا:

وهما قريتان شمال منوف اصطدم بهما الجنرال فوجيير في طريقه الى الغربية يوم ١٣ آب ١٧٩٨. فثار أهل القريتين وحملوا السلاح وأغلقوا الأبواب في وجه الجنود، فطلب الجنرال فوجيير المساعدة من الجنرال زايوتشك الذي كان مرابطاً في منوف. وتعاونت القوتان الفرنسيتان على إخضاع القريتين المصريتين بعدما دافع أهلهما دفاعاً

(١) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ١٧١.
(٢) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٣٤.

شديداً، وكانت النساء تشاركن الرجال في قتال الفرنسيين، وهذا من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه. استولى الفرنسيون على غمرين ثم تتاء وأضرموا النار في القريتين عقاباً لهما على الثورة[1]، وقتل من المصريين من ٤٠٠ الى ٥٠٠ بينهم عدد من النساء[2].

(ب) ـ ثورة طنطا:

كانت طنطا أكبر بلاد الدلتا من الناحية التجارية وقد بلغ عدد سكانها في ذلك الوقت عشرة آلاف نسمة. وقد بدأت الثورة في أوائل تشرين الأول ١٧٩٨ وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أي ضريبة أو غرامة تفرض عليهم[3]. لكن الجنرال فوجيير وجد أن روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد، فأرسل اليها كتيبة من الجنود بقيادة الكولونيل «لوفيفر» وعهد اليه اعتقال زعماء المدينة.

كانت حفلات المولد الأحمدي[4] قائمة عندما أخذ القائد الفرنسي أربعة من مشايخ المسجد الأحمدي رهائن وأركبهم السفينة التي تبحر بهم إلى القاهرة، فثارت المدينة وهاجمت القوات الفرنسية بالبنادق والحراب ودارت معركة شديدة دامت أربع ساعات. وبلغت خسائر المصريين ثلاثمائة قتيل وجريح.

ثم جرد نابليون حملة بقيادة الجنرال «لانوس» Lanause الذي عين قومنداناً للمنوفية خلفاً للجنرال زايونتشك، فسار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل. وبلغ طنطا دون أن يلقي مقاومة. وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العربان التي كانت تساند الثوار، لكنه لم يستطع أن يقهرها أو يتغلب عليها، ثم عاد إلى منوف. ولم تهدأ الاضطرابات في المنوفية والغربية، وكان الأهالي دائماً يتحينون الفرص للثورة ضد الاحتلال الفرنسي.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٣١٣.

(٢) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٣٥.

(٣) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٣١٥.

(٤) المولد الأحمدي: السيد أحمد البدوي صاحب هذا المولد وهو مدفون في مسجد مشهور باسمه في طنطا. كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٤٢٨.

٥ ـ في المنصورة:

على أثر تعيين الجنرال فيال Vial قومنداناً لمديريتي المنصورة ودمياط في أوائل آب ١٧٩٨، مضى بفرقته الى المديريتين لإخضاعهما. فقصد أولاً المنصورة[١] ثم احتلها وترك فيها حامية مكونة من ١٢٠ جندياً واتجه الى الشمال. لكن أهل المدينة لم يحتملوا منظر العدو بينهم فثاروا على معسكر هذه الحامية في هجوم خاطف، وهربت القوة الفرنسية بعد إحراق مقرها تريد النجاة عن طريق النيل، ولكن أهل المنصورة لم يمكنوهم من ذلك فأبادوهم جميعاً إلا امرأة أحد الضباط وابنتها[٢]، فقد أبقوا عليهما. وقد ذكر كلوت بك أنه زار السيدة الفرنسية بعد أن تزوجت أحد المصريين. وهكذا استعاد أبناء المنصورة ذكرياتهم مع أجداد هذه الحامية الذين كانوا في رفقة لويس التاسع ملك فرنسا والذي هزمته المنصورة مع حملته الصليبية قبل خمسة قرون ونصف[٣]. وكادت الثورة تستفحل لولا وصول الجنرال دوجا Dugua الذي عينه نابليون قومنداناً لمديرية المنصورة التي لقي الفرنسيون عناء كبيراً في إخضاعها[٤].

٦ ـ في دمياط:

وامتدت شعلة الثورة الى دمياط في أوائل ايلول ١٧٩٨ وكان حسن طوبار زعيم اقليم المنزلة، فسار بسفنه الى دمياط ليشترك مع أهلها في الدفاع ضد الاحتلال الفرنسي. وكانت المعارك ضارية في المدينة والقرى المحيطة بها، فقد تمكن أهالي «عزبة البرج» من إفناء الحامية الفرنسية المعسكرة فيها[٥]. ثم بدأ الجنرال فيال Vial هجومه

---

(١) كانت الدقهلية تعرف بمديرية المنصورة. ولم يكن اسم الدقهلية شائعاً في ذلك الوقت.
كلوت بك: لمحة عامة الى مصر، جـ ١ ص ٤٢٧.

(٢) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٣٦.

(٣) وتعرف بالحملة الصليبية السابعة على مصر (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤) التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الذي استطاع احتلال دمياط ١٢٤٩. لكن المصريين انتصروا في المنصورة وأسروا لويس التاسع ١٢٥٠ الذي أطلق سراحه مقابل إخلاء دمياط ودفع المال ثم الرحيل. وقد فشلت هذه الحملة.
راجع سيد علي الحريري: الحروب الصليبية، ص ٢٤٥ ـ ٢٥٨.

(٤) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٣٢٤.

(٥) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٣٨.

وتغلب على الثوار وردهم على أعقابهم، فانسحبوا الى «قرية الشعراء»[1] وهي جنوب دمياط، فتقدم الفرنسيون نحوها وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار، فاقتحم الجنود القرية واستولوا عليها ونهبوها وأضرموا النار فيها. وخسر الثوار في المعركة نحو خمسين قتيلاً وخسر الفرنسيون ١٢ قتيلاً و٣٠ جريحاً. ثم استمرت حملات الفرنسيين التأديبية حتى أصبحت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد يبيع فيه الفرنسيون ما نهبوه وسلبوه، فكانوا يعرضون المواشي والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والأوز، وكثيراً من قطع الذهب والفضة التي كانت حلياً للنساء.

وتفاقمت الثورة في البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط، وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود في النيل، فأمر نابليون بتجريد قوة برية بحرية مزودة بالمدافع للسيطرة على بحيرة المنزلة والقضاء على نفوذ حسن طوبار. ولكن بحيرة المنزلة كانت مليئة بمئات الجزر مما سهل على الثوار المناورة والاختفاء، وقد فاجأوا القوة البحرية الفرنسية مما اضطرها الى التراجع حتى عادت الى دمياط. لكن القوة البرية الفرنسية احتلت بلدتي المنزلة والمطرية مما جعل استمرار المقاومة من الجزر بغير قواعد برية أمراً متعذراً، فترك حسن طوبار المنزلة الى غزة[2].

وهكذا لم يمض على احتلال القاهرة إلا ثلاثة أشهر وبعض شهر حتى كانت الدلتا وكأنها شعل من اللهب تزخر أرجاؤها بأمجاد التضحية. وعلى ضوء الحرائق التي كانت تذهب بالمال والبنين كتبت مصر تاريخها الحديث وفيه من العزم والتصميم على الحرية ما أذهل المعتدي المتكبر، وهي تزرع بذرة الفكرة العربية من جديد.

واستمرت مقاومة الشعب المصري في الوجه البحري للاحتلال الفرنسي بالرغم من عدم تكافؤ الفرص ولم تهدأ الا برحيل هذا الاحتلال عن مصر.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٣٣٧.

(٢) ظل حسن طوبار في غزة حتى تحركت حملة نابليون على سوريا فعاد الى مصر وتعهد بالاخلاد الى السكون ولكنه مات ١٨٠٠ ونعته جريدة الفرنسيين الرسمية.
محمد صبيح: كفاح شعب مصر ص ٣٨.

الفصل السادس

الثورة في الوجه القبلي (الصعيد)

فر مراد بك بعد معركة الاهرام منهزماً أمام الجيش الفرنسي، واتجه بفلول جيشه إلى الصعيد ليكون بعيداً عن هجمات نابليون الذي عزم على اخضاع الوجه القبلي. فقد وجد نابليون أن قوة مراد بك في الصعيد تهدد سلطة الحكومة المركزية، وستكون نواة المقاومة الشعبية، وتعطل الملاحة في النيل عندما بدأت تمنع سفن الغلال من الإبحار الى القاهرة. لذلك عين الجنرال ديزيه قائداً للحملة على الوجه القبلي وكانت مؤلفة من نحو خمسة آلاف من المشاة والفرسان والمدفعية.

وقبل أن تسير الحملة أراد نابليون أن يدخر جنوده ويمنع الحرب باقطاع مراد بك مديريات جرجا وقنا وأسوان على ألا تزيد فرسانه عن خمسمائة أو ستمائة فارس، وأن يؤدي الضرائب لخزينة الجيش الفرنسي[1]. وظن مراد بك أن نابليون في موقف حرج عندما عرض عليه هذا الطلب فرفضه. وكان ذلك من حسن حظ الشعب المصري إذ لو تحالف الاستعمار مع الاستغلال لكانت الفريسة هي الشعب.

في ليلة ٢٥ ـ ٢٦ آب ١٧٩٨ بدأ الجنرال ديزيه زحفه من الجيزة[2] مطارداً مراد بك إلى إقليم البهنسا والفيوم ثم أسيوط وجرجا مخترقاً أطلال دندرة الكرنك والأقصر الضخمة ثم إلى أسوان وفيلة. ومراد بك ينطلق بأقصى سرعة تارة هارباً وتارة منقلباً ليهاجم الفرنسيين، يختفي مرة في واحة بالصحراء ويعود مرة أخرى للظهور خلفهم، ينكمش جيشه الى بضع مئات من الأتباع الأوفياء، ولكنه لا يلبث أن يجمع الأحلاف

---

(١) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٤٠.

(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٣٠٨.

والجيوش الجديدة ثم ينتهي به المطاف حيث بدأ دون أن يظفر به مطارده عند اهرام الجيزة.

وصلت حملة ديزيه يوم ٣١ آب ١٧٩٨ الى بني سويف واحتلتها دون مقاومة. ثم تحركت الحملة صاعدة في النيل ووصلت الى المنيا في ٩ أيلول، ثم أسيوط في ١٤ أيلول. وفي ٧ تشرين الأول وصل ديزيه بلدة سدمنت حيث جمع مراد بك نحو ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ فارس من المماليك والعربان، ودارت معركة من أشد المعارك هولاً كادت تسحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية[1]. وقد انتصر الفرنسيون وقتل منهم أربعة وأربعون وجرح مائة، وقدرت خسائر المماليك بأربعمائة وتقهقر مراد إلى الفيوم[2].

وتغيرت الحرب بعد هذه المعركة فصارت مقاومات محلية تتجدد تبعاً للأحوال والمفاجآت. وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسي من المعارك المنظمة، خاصة وأن هناك فرقاً بين الصعيد والدلتا، إذ كان يسهل امداد القوات المحاربة في الدلتا لسهولة التنقل فيها أما الصعيد فلم يكن الامداد سهلاً وطول المسافات كان في صالح المدافعين ومنهكاً لقوى المهاجمين. وظل الزحف مستمراً حتى أسوان دون أن يقدر الجنرال ديزيه على اخضاع الأهالي، فما من انسان واحد في الصعيد قبل السلطة الفرنسية أو رضي بالاحتلال، والكل يحمل سلاحه والكل في المعركة[3].

١ - بين جرجا وأسيوط (كانون الثاني / يناير ١٧٩٩):

واجه الفرنسيون في الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى. وكلف الجنرال «دافو» بقمع هذه الثورة، فقام من جرجا ووصل إلى سوهاج يوم ٣ كانون الثاني ١٧٩٩، حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين تقدر بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزره سبعمائة من الفرسان. ونشب

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١ ص ٣٥٧.
(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٣٢٢.
(٣) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٤٢.

القتال بين الفريقين ولكن الأهالي على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين على خوض المعارك الحديثة، فأصلتهم فرقة الفرسان ناراً حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى. ومع ذلك لم تنكسر شوكة الثائرين رغم هزيمتهم الثانية في معركة طهطا في ٨ كانون الثاني ١٧٩٩، حيث خسروا ١٥٠ قتيلاً من الفرسان وثمانمائة من المشاة. وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيعاً من القرى التي أطلقت عليهم النار فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها[1].

وفي ٢٢ كانون الثاني ١٧٩٩ وقعت معركة سمهود بين جيش مراد بك ويتكون من ١٥٠٠ مملوك والباقون من الأهالي الذين انضموا إليه. ويقدر نابليون عددهم في مذكراته بسبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة وألفين من عرب ينبع وجدة بقيادة الشريف حسن، في حين كان الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال ديزيه وعدده خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحربية. وهزم مراد بك وفر المماليك إلى الصحراء، والفرنسيون يجدون في مطاردتهم فلما وصلوا أسوان كان مراد قد أوغل في أعماق السودان[2].

٢ ـ في أسوان (شباط / فبراير ١٧٩٩):

في أول شباط ١٧٩٩ احتل الفرنسيون أسوان، وبذلك تم لهم احتلال الصعيد بأكمله. وعندما أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إلى جزيرة فيلة على مراكب الأهالي ولم يقبل أحد منهم أن يسلم مركبه. فلقي الفرنسيون مقاومة شديدة، وحمل الأهالي أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال. ويوم ٢٠ شباط احتل الفرنسيون الجزيرة، وفي ٢١ شباط احتلوا الجزر الأخرى المجاورة والتي اشترك أهلها في الثورة. وأخذ الفرنسيون يحصنون أسوان[3].

ولا جدال في أن الشعب المصري كان يعلم انه يخوض معركة غير متكافئة أمام المدافع والقوة العسكرية المتفوقة. ومع هذا لم يخطر ببال أحد الفرار ولا فكر في الاستسلام، بل احتقر المماليك الذين كانوا يفرون دون أن يشعروا بإحساس المواطن

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر جـ١ ص ٣٧٨.

(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٣٣٩.

(٣) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ص ٣٨٣.

الذي يدافع عن شرفه وشرف قومه[1]، ولعل الدافع القومي رغم عـدم ظهوره بالمعنى الواضح ، كان يتكون في أعماق الشعب المصري العربي وهو يحارب الاحتـلال دون أن يكترث للمماليك الذين يختلف معهم في القومية.

وهكذا ظل الجيش الفرنسي يطارد قوات شتى لا عداد لها ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع فتعود ثانية الى القتـال في ميدان واسـع يمتد من الجيـزة شمالاً الى أسـوان جنوباً ومن القصـير شرقـاً الى واحـات الصحـراء الكـبرى غـربـاً دون إقـرار السلطة الفرنسية فيها.

---

(١) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٤٢.

الفصل السابع

المقاومة المصرية أثناء الحملة الفرنسية على سوريا

(١٠ شباط / فبراير - ٢٠ أيار / مايو ١٧٩٩)

كان نابليون منهمكاً في الحملة على سوريا، عندما أخذت بوادر الثورة تظهر من حين لآخر، فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسي عن مصر، وتغيب نابليون الذي كان له من الهيبة ما لم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسي، كل ذلك يغري الأهالي بالثورة والمقاومة للتخلص من الاحتلال الفرنسي.

١ - الدولة العثمانية تعلن الحرب على فرنسا (١١ أيلول ١٧٩٨):

وقفت الدولة العثمانية في بدء الحملة وقفة المتردد الى أن تحطم الأسطول الفرنسي في واقعة أبي قير البحرية (١ - ٢ آب ١٧٩٨). ولا شك أن هذه الواقعة حولت مجرى التاريخ، إذ أفسدت على نابليون ما كان قد وضعه من خطط لاحتلال الشرق والوصول الى الهند، وأجبرته بعد أن قطعت عليه طريق فرنسا إلى الانصراف بكل قواه وبجميع الوسائل الى إزالة التوتر بين فرنسا والباب العالي. فأرسل كتاباً[1] إلى الصدر الأعظم في ٢٢ آب ١٧٩٨، يؤكد له فيه حرص فرنسا على توثيق عرى الصداقة التقليدية مع الدولة العثمانية. وعندما وصلت أخبار إنتصار الانكليز في أبي قير، تغير موقف السلطان وانتهى تردده إزاء الحملة الفرنسية. وفي ١١ أيلول ١٧٩٨، أعلن السلطان سليم الثالث الحرب على فرنسا[2].

شرعت الدولة العثمانية في إعداد جيشين، يتوجه أحدهما عبر الطريق البري من سوريا ووجهته الزحف على مصر عن طريق برزخ السويس، والثاني بطريق البحر

(١) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ ١ ص ١٠٣.

(٢) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٥١.

ونقطة تجمعه في رودس لمهاجمة سواحل مصر الشمالية. وهكذا سجلت الدبلوماسية الإنكليزية إنتصاراً عظيماً في الشرق[1]، إذ تمكنت من حمل الدولة العثمانية على إعلان الحرب على فرنسا، وتجهيز حملة عسكرية مهمتها طرد الفرنسيين من مصر بمساعدة الاسطول الانكليزي، بعد أن صدرت الأوامر بالقبض على القائم بأعمال السفارة الفرنسية وجميع رعايا فرنسا في القسطنطينية والقائهم في السجون[2].

وأخذت الدولة العثمانية بتحريض من إنكلترا في مقاومة الفرنسيين وايغار صدور المصريين عليهم. فأرسلت عدة منشورات ووالت إرسال الرسل بالرسائل والكتب لأعيان البلاد وكبار القوم، وفيها الطعن بمبادىء الثورة الفرنسية[3]، والاستهزاء بمعتقدات الفرنسيين وتسفيه أحلامهم، مما أزعج نابليون ورجاله. لأن ذلك نقض أساس دعواهم للمصريين بأنهم مسلمون، أو أنهم يحترمون الدين الإسلامي، أو أنهم أصدقاء أمير المؤمنين وخليفة المسلمين.

وبعد أن أخفقت مساعي حكومة الإدارة في القسطنطينية، كتبت إلى نابليون رسالة طويلة في ٤ تشرين الثاني ١٧٩٨[4]، جاء فيها أنه ما دام الانكليز والروس أصحاب السيطرة في البحر المتوسط فمن المستحيل إنشاء أية مواصلات بين مصر وفرنسا وإرسال الجند والذخيرة إلى نابليون، وهي تكتفي في هذه التعليمات باقتراح ثلاثة حلول تترك لنابليون نفسه اختيار ما يروقه منها. فعليه إما البقاء في مصر مع تدعيم مركزه بشكل يمنع عنه هجوم القوات العثمانية، أو التقدم إلى الهند ومن المنتظر أن يجد هناك أناساً على الاستعداد للانضمام إليه لتهديم السيطرة الإنكليزية فيها، والحل الثالث يقضي بالسير براً إلى القسطنطينية وسبق العدو الذي يهدده في عملياته. وأما العودة إلى فرنسا فهي متعذرة في الظروف القائمة.

وما كان لمن في مثل عبقرية نابليون أن يقبع في مصر حتى تدهمه القوات المتحالفة فلا بد من التقدم وملاقاتهم خارج مصر. وهذه الخطة في أساسها دفاعية

---

(١) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ١ ص ١١٤.

(٢) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١٢٦.

(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٢٦٨.

(٤) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٢٠٢.

هدفها تثبيت الحملة الفرنسية في مصر، والضغط على السلطان العثماني سياسياً، وحرمان الأسطول الانكليزي من مراكز التموين على طول سواحل الشام.

إلا أن أحلام نابليون لا بد وأن تقوده إلى تحقيق مشروعات أكبر من هذا الهدف الدفاعي[1]، فقد يتجه شرقاً الى الهند لحرمان إنكلترا من مركزها هناك، وقد يزحف شمالاً لاحتلال القسطنطينية ثم يتجه غرباً مخترقاً أوروبا حتى يصل باريس، وتحتل الجمهورية الفرنسية المركز الذي كانت فيه الامبراطورية الرومانية إبان مجدها، ويحرم الاسطول الانكليزي من الاستفادة بموانىء شرق البحر المتوسط. ولعله أراد فتح طريق بري إلى أوروبا بعد أن أغلق الاسطول الانكليزي الطريق البحري.

٢ ـ سير الحملة الفرنسية على سوريا (١٠ شباط / فبراير ـ ٢٠ أيار / مايو ١٧٩٩):

رأى نابليون أن حدود مصر الطبيعية لا تنتهي بشبه جزيرة سيناء بل بجبال طوروس، لذلك كانت سوريا مطمع أنظار كل دولة قامت في مصر.

كانت سوريا سنة ١٧٩٩ تتألف من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وكانت مقسمة إلى خمس ولايات عثمانية هي حلب ودمشق وطرابلس وعكا والقدس. وقد دارت رحى الحملة الفرنسية في فلسطين[2] واقليم بحيرة طبرية في الأردن.

(أ) ـ احتلال العريش (٢٠ شباط / فبراير ١٧٩٩):

بدأ نابليون زحفه في ١٠ شباط ١٧٩٩، ومعه ١٣ ألف رجل متجهاً الى الشام بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر المتوسط[3]. وانتصر على القوات العثمانية والمماليك في العريش يوم ١٥ شباط، ثم سقطت قلعة العريش في ٢٠ شباط. ولما استولى الفرنسيون على العريش أرسلوا الى القاهرة بخبر انتصارهم فأقيمت الزينات وأطلقت المدافع[4].

---

(١) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٩٣.

(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٣٥٩.

(٣) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٥٥.

(٤) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٤٧.

(ب) ـ احتلال يافا (٧ آذار / مارس ١٧٩٩):

لم تصطدم الحملة الفرنسية على سوريا بدفاع عنيد، فواصلت زحفها واستولت على خان يونس، غزة، الرملة، اللد، ثم على يافا في ٧ آذار ١٧٩٩، وذلك بعد معركة عنيفة قتل فيها ٢٠٠٠ جندي عثماني. وفي يافا يخط نابليون أحلك السطور في تاريخه السياسي والعسكري، عندما أمر بإعدام ثلاثة آلاف جندي عثماني كانوا قد استسلموا إليه بشرط الإبقاء على حياتهم، فسيق الأسرى الى شاطىء البحر حيث أعدموا جميعاً رمياً بالرصاص أو طعناً بالسونكي. ويقول لوكارت Lockart، الذي كتب تاريخ نابليون بعد أحداث يافا بثلاثين عاماً، أن عظام الضحايا لا تزال ـ وقت كتابة ترجمة نابليون ـ موجودة على الشاطىء تحيل لون رماله إلى الأبيض[1]. وكان إعدامهم بهذه الطريقة الوحشية من دوافع فشل الحملة في سوريا لأنه أثار في نفوس الجنود العثمانيين عوامل السخط وحب الانتقام. ولا جدال في أن إعدامهم كان وصمة عار في جبين قائد الحملة الفرنسية باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم[2]. لأن هؤلاء المقاتلين قد آثروا الاستسلام وفق شروط اتفقوا عليها، وما كان ينبغي بحال من الأحوال أن يخلف الفرنسيون وعودهم وأن يخرقوا قوانين الحرب المعترف بها[3].

(جـ) ـ صمود عكا (١٨ آذار / مارس ـ ٢٠ أيار / مايو ١٧٩٩):

استأنف الفرنسيون زحفهم بعد سقوط يافا، فاحتلوا حيفا، ثم وصلوا الى عكا. وكانت عكا ذات تحصينات منيعة، فبدأ نابليون في حصارها في ١٨ آذار ١٧٩٩، وكان حصاراً شاقاً طويلاً، صمدت معه عكا بفضل مقاومة أحمد باشا الجزار وكذلك المساعدة التي قدمها السير سدني سميث قائد الاسطول الانكليزي إلى العثمانيين عن طريق البحر[4]. وكان السير سدني سميث قد حضر الى عكا في ١٦ آذار ومعه الكولونيل الفرنسي فيليبو[5]، رفيق نابليون في مدرسة بريان الحربية وندّه في

---

(١) LOCKART: The History of Napoleon Bonaparte p. 100.

(٢) REYBAUD: Histoire Scientifique et militaire de l'Expedition Française en Egypte vol.IV. P. 341 - 58.

(٣) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص ١٢٧.

(٤) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٢٠٥.

(٥) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ص ١٢١.

العبقرية ومن أقدر الاختصاصيين في الرماية والمدفعية وكان ملكي العقيدة يكره الثورة ورجالها فترك بلاده وانضم الى الجيش الانكليزي في حروبه ضد الجمهورية. وإلى هذين الرجلين يرجع ذلك النظام العلمي الذي صد نابليون واذاقه طعم أول فشل في حياته العسكرية بعد حصار استمر أكثر من شهرين. فانتهى الحصار في ٢٠ أيار ١٧٩٩ بالإخفاق والفشل[١].

وهكذا تحطمت آمال نابليون وأحلامه عند أسوار عكا. كان نابليون يأمل بفتح سوريا أن يصير سيد الفرات كما صار سيد النيل، وأن يسيطر على كل المواصلات إلى الهند. كذلك أطلق نابليون لخياله العنان فرأى أن بتحريره أهل لبنان من حكم الأتراك يمكن أن يجمع منهم جيشاً من ستين أو ثمانين ألف مقاتل يسير بهم مع جيشه المكون من خمسة وعشرين ألفاً إلى القسطنطينية. وفي هذا المجال يود البعض أن يقول أن الدروز والمسيحيين والشيعة قد عرضوا المساعدة على نابليون[٢]. فلو تيسر لنابليون فتح عكا لما وقف في تيار فتوحاته في آسيا عائق، فقد كانت سوريا والعراق والأناضول تابعة للدولة العثمانية بالإسم، وكثيرون من أمراء سوريا كانوا ينتظرون سقوط عكا لينضموا الى نابليون كما اعترف بذلك فيما بعد الأمير بشير الشهابي الكبير[٣].

وهكذا أخفقت الحملة على سوريا وحصد نابليون تحت أسوار عكا ما غرسه على شاطىء يافا[٤]. ثم رجع نابليون إلى مصر ونبذ فكرة غزو سوريا وطرح كل أطماعه وأحلامه فيما يتعلق بالشرق وقال: «لقد لازمني سوء الطالع فلولا الجزار لصرت امبراطوراً على الشرق».

ومنذ ٢٠ أيار ١٧٩٩، أخذ الجيش الفرنسي يتقهقر من أمام عكا إلى يافا، غزة، فالعريش. وفي ١٤ حزيران دخل نابليون القاهرة.

والسؤال الذي يطرح: هل كان نابليون محقاً عندما اعتبر انه حقق جميع أهداف الحملة على سوريا؟

---

(١) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٣٠٩.

(٢) THIERS: Histoire de la Révolution Française T 10 P 288 - 289.

(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٣١٦.

(٤) LARALLÉE: Histoire des Français T 4 p. 300.

يمكن القول أن الحملة حققت أهم أهدافها إذ ضربت بالفعل القوات العثمانية المتجمعة في بلاد الشام، بحيث أنها تحتاج لوقت طويل حتى تتجمع ثانية. غير أن نابليون لم يتمكن من تحطيم قوة أحمد باشا الجزار بسبب فشله في الاستيلاء على عكا. ويمكن القول بأن نجاح الحملة كان معنوياً لأنه رفع من الروح المعنوية «بجيش الشرق» بوجه خاص وللحكومة الادارة والشعب الفرنسي بوجه عام[1].

٣ ـ الثورات المصرية أثناء الحملة الفرنسية على سوريا (١٠ شباط / فبراير ـ ١٠ أيار / مايو ١٧٩٩):

يمكن القول أنه خلال الحملة الفرنسية على سوريا، تابعت بذرة الفكرة العربية نموها. ففي الوقت الذي شهدت فيه يافا المجازر على يد نابليون (آذار ١٧٩٩)، كان الفدائيون المصريون يسطرون النصر على الفرنسيين في قنا. كما تأججت الثورة في الشرقية. وأثناء حصار عكا، اندلعت الثورة في البحيرة.

(أ) ـ الفدائيون المصريون في قنا (٣ آذار / مارس ١٧٩٩):

عندما كان الجنرال ديزيه مقتفياً آثار المماليك في الوجه القبلي (الصعيد) عاكست الرياح الأسطول الفرنسي قرب بلدة البارود، وكانت مؤلفة من اثنتي عشر سفينة مسلحة بالمدافع الضخمة ومحملة بالمؤن والذخائر والأمتعة وخزينة الحرب وآلات الموسيقى[2]، ونقل نحو ثلاثمائة جندي ومائتي ملاح. فهاجم أهالي قنا الأسطول الفرنسي في ٣ آذار ١٧٩٩، ونزل عدد كبير منهم إلى الماء سابحين نحو السفن. وقد أطلقت السفن مدافعها على المهاجمين ومات كثيرون دون أن يوقف ذلك محاولة الوصول إلى السفينة «ايطاليا»، ووجد قائدها «سورانـدي» أنه مغلوب على أمره فأمر بحارته وجنوده بالقفز الى الماء وأشعل النار في مخزن البارود بالسفينة فنسفت إلى شظايا أصابت الكثيرين، ودارت معركة مائية بالأيدي والخناجر[3]. وكذلك صنع بقية رجال السفن الفرنسية المرافقة بعد أن رأوا عنف الهجوم. وهلك قائد الفرنسيين في هذه

---

(١) رجب حراز: المدخل الى تاريخ مصر الحديث، ص ١٢٩.

(٢) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ١٨٤.

(٣) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٤٤.

المعركة وجميع جنوده وعددهم ٥٠٠ وكانت هذه أكبر خسارة منيت بها القوات الفرنسية في معركة واحدة.

وروعة التصميم الذي أبداه أبناء قنا في الهجوم الجريء لا مثيل له في تاريخ الفدائية. ولقد غنم الأهالي كثيراً من الذخائر وبعض المدافع التي كانت تحملها السفن المتطورة والخزينة وما فيها من المال.

وفي أبنود ظهرت هذه الغنائم التي شدت من عزم الشعب على المقاومة، فقد دارت مع الفرنسيين معركة رهيبة استمرت ثلاثة أيام لم تنته إلا بإحراق البلدة إحراقاً تاماً حتى تحولت الى تراب. وعلى الرغم من المئات العديدة التي خسرها الأهالي فقد أثخنوا الجيش الفرنسي بجراح مؤلمة، إذ قدرت خسائره بـ ١٦٩ قتيل وجريح.

وهكذا صح ما ذكره قوادهم فقد تحولت حرب الصعيد الى حرب حقيقية[1]، فكتب ديزيه الى نابليون في ١٧ آذار ١٧٩٩ يقول:

«اني لا أكتمكم الحقيقة... إننا لن نكون سادة هذه البلاد، لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة من الجنود، عادت الى حالتها القديمة».

(ب) ـ ثورة أمير الحج في الشرقية (آذار / مارس ١٧٩٩):

كانت وظيفة امارة الحج من الوظائف الكبرى في القطر المصري، وكان لا يتقلدها إلا كبار الأمراء من المماليك. وعندما جاءت الحملة الفرنسية كان أمير الحج صالح بك من أتباع مراد بك، فأسند نابليون هذه الوظيفة لمصطفى بك لكي يؤكد للمصريين أنه محافظ على تقاليدهم الدينية وعاداتهم الإسلامية.

وعندما بدأ نابليون حملته على سوريا خيل لمصطفى بك انه يستطيع بما له من مركز امارة الحج أن يثير على الفرنسيين حرباً فنادى بالجهاد، وامتد لهيب الثورة إلى مديريتي الشرقية والمنصورة[2]. وكانت مظالم الفرنسيين من دوافع اشتعال الثورة، ذلك أنهم أخذوا يفرضون الأتاوات على البلاد وأخذ جنودهم يصادرون الجمال والحمير

---

(١) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ٤٥.

(٢) احمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٣٥٠.

والماشية من القرى. وأوشكت الثورة أن تتحول الى حركة عامة تهدد الجيش الفرنسي في وقت انهماك نابليون في الحملة على سوريا.

وهكذا قصد الجنرال لانوس Lanausse على رأس قوة مؤلفة من ستمائة جندي إلى الشرقية التي كانت منبع الثورة، ففر امير الحج إلى دمياط. وبحث لانوس عن القرى التي اشتركت في الثورة وأحرقها لتكون عبرة لغيرها.

(جـ) - ثورة المهدي في البحيرة (٢٤ نيسان / ابريل - ١٠ أيار / مايو ١٧٩٩):

أواخر شهر نيسان ١٧٩٩ اندلعت في البحيرة ثورة أعظم خطراً من ثورة الشرقية، ذلك انه ظهر فيها رجل من طرابلس الغرب ادعى المهدية، ودعا الناس لقتال الفرنسيين. وليلة ٢٤ - ٢٥ نيسان وصل دمنهور فأمر رجاله بالهجوم على الحامية الفرنسية، فقتلوا رجالها جميعاً واستولوا على سلاحهم ومدافعهم. وكان لانتصار المهدي أثر كبير في مديرية البحيرة، فهرع اليه الناس وزاد عدد اتباعه.

وكان في الرحمانية فرقة من الجيش الفرنسي تحت قيادة الضابط لوفيفر Lefebvre، فلما وصلته أخبار استيلاء المهدي على دمنهور سار بقوة مؤلفة من خمسمائة جندي للقضاء عليه، فوقعت معركة كبيرة بين الرحمانية ودمنهور اضطر معها الضابط لوفيفر إلى الانسحاب. لكن الجنرال لانوس عاد وهزم رجال المهدي، ودخل دمنهور في ١٠ أيار، وفتك بالأهالي[1] انتقاماً للذين قتلوا في دمنهور. وفر أتباع المهدي الى الصحراء، ولم يعرف هل فر المهدي أم سقط بين الضحايا[2].

شمل السكون الظاهر أنحاء القطر المصري في منتصف شهر حزيران ١٧٩٩، فقد أخمدت الثورات في الوجه البحري، وانتهت المعارك العنيفة في الوجه القبلي، وتوطدت السكينة في القاهرة. لكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذي يسبق العواصف، وخاصة بعد أن دخل نابليون القاهرة في ١٤ حزيران ١٧٩٩ دخول الظافر المنتصر وذلك ستراً لهزيمة عكا[3]. وقد وصف نقولا الترك هذا الاحتفال بقوله: «فدخل بونابرت مصر بموكب شهير ورآه الكبير والصغير، ومشت أمامه جميع

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ٢ ص ٤١.

(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٤٣٠.

(٣) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٢٠٦.

العساكر الفرنساوية وحكام وأعيان وعلماء وأغاوات مدينة مصر المحمية، ودخل من باب النصر بالعز والنصر، وكان يوماً عظيماً»[1].

٤ ـ منشور نابليون إلى المصريين (١٧ تموز / يوليو ١٧٩٩):

وصل الأسطول التركي تجاه الاسكندرية يوم ١١ تموز ١٧٩٩، وبدأت القوات العثمانية تنزل على شاطىء أبي قير. فجمع نابليون الجيش الفرنسي، في الرحمانية، وهناك أصدر منشوراً للمصريين يعدهم ويهددهم ويحذرهم، ويتملقهم ويتقرب منهم موجهاً فيه الخطاب إلى أعضاء الديوان. ولقد قصد نابليون بهذا المنشور القاء الرعب في قلوب المصريين ليخلدوا الى السكينة، وليخافوا عاقبة الفتك بهم. كما أراد أن يفهم المصريين أن القادمين الى مصر ليسوا أتراكاً مسلمين بل هم من الروس المسيحيين، وذلك ليغرر بهم بعد أن أحدث قدوم الجيش العثماني حركة ارتياح في نفوسهم وخيل لهم الخلاص من الاحتلال الفرنسي. ولذلك خشي نابليون من ثورة المصريين عليه فوجه إليهم منشوره، وهذا نصه بالعربية: ـ

«لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. نخبركم يا محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير. عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته. بعد مزيد السلام عليكم، وكثرة الأشواق إليكم، نخبركم يا أهل الديوان، المكرمين العظام، بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل أن نرد راحة الرعايا المساكين ونقاصص أعداءنا المحاربين. وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عمومياً عن كامل أهل البحيرة حتى صار الاقليم في راحة تامة، ونعمة عامة. وفي هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغاراً وكباراً حتى ظهروا بثغر الاسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب وجلل المدافع النازلة عليهم، فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبي قير وابتدأوا ينزلون الى البر، وأنا الآن تاركهم وقصدي أن يتكامل الجميع في البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلي بالحياة الطائعين، وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون في ذلك شأن عظيم في مدينة مصر. والسبب في ذلك في مجيء هذه العمارة إلى هذا الطرف القسم بالاجتماع على المماليك والعربان، ولأجل

(١) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية، ص ١٠٤.

نهب البلاد وخراب القطر المصري، وفي هذه العبارة خلق كثير من «الموسكو» الافرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من يوحد الله، وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله، ويؤمن برسول الله، يكرهون الإسلام، ولا يحترمون القرآن، وهم نظراً لكفرهم في معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة، وان الله ثالث تلك الثلاثة، تعالى الله عن الشركاء.
ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة، وان كثرة الآلهة لا تنفع، بل انه باطل لأن الله هو الواحد الذي يعطي النصرة لمن يوحده، هو الرحمن الرحيم، المساعد المعين، المقوي للعادلين الموحدين، الماحق رأى الفاسدين المشركين، وقد سبق في علمه القديم، وقضائه العظيم، أنه أعطاني هذا الاقليم وقدّر وحكم بحضوري عندكم الى مصر، لأجل تغييري الأمور الفاسدة، وأنواع، الظلم، وتبديل ذلك بالعدل والراحة، مع صلاح الحكم. وبرهان قدرته العظيمة، ووحدانيته المستقيمة، إن لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا، لأنهم ما قدروا أن يعملوا الذي عملناه، ونحن المعتقدون وحدانية الآله، نعرف أنه العزيز القادر، القوي القاهر، المدبر للكائنات، والمحيط علمه بالأرضين والسموات، القائم بأمر المخلوقات، هذا ما في الآيات، والكتب المنزلات. ونخبركم بالمسلمين إن كانوا بصحبتهم، يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام، لأن أعداء الاسلام لا ينصرون الإسلام، ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله، وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً، أو يكون مسلماً ساقتهم المقادير، للهلاك والتدمير، مع السفالة والرذالة، وكيف لمسلم أن ينزل في مركب تحت بيرق الصليب، ويسمع في حق الواحد الأحد، الفرد الصمد، من الكفار، كل يوم تحريفاً واحتقاراً، ولا شك أن هذا المسلم في هذا الحال، أقبح من الكافر الأصلي في الضلال.

نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية، في سائر الاقاليم والبلاد. لأن البلد الذي يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص. انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفاً عليهم أن نفعل فيهم مثل ما فعلنا في أهل دمنهور، وغيرها من بلاد الشرور، فإنهم بسبب سلوكهم المسالك القبيحة قاصصناهم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تحريراً بالرحمانية في يوم الأحد ١٥ صفر ١٢١٤ ـ طبع بالمطبعة الفرنسية العربية.

٥ ـ معركة أبو قير البرية وهزيمة العثمانيين (٢٥ تموز / يوليو ١٧٩٩):

بعد وصول الأسطول العثماني تجاه الاسكندرية، نزلت القوات العثمانية بقيادة مصطفى باشا على شواطىء أبي قير، وبعد قتال عنيف مع الحامية الفرنسية الصغيرة، تمكنت من احتلال قلعة أبي قير في ١٧ تموز ١٧٩٩. ولكن القيادة العثمانية بقيت في شبه جزيرة أبي قير واكتفت بقطع المواصلات مع رشيد والاسكندرية، مما مكن نابليون من وضع خطته بسرعة[1]، وتولى القيادة بنفسه وحصر الجند العثماني في هذا الحيز الضيق نسبياً من شبه الجزيرة.

وتمكن نابليون في يوم واحد (٢٥ تموز) من القضاء على ذلك الجيش العثماني المؤلف من خيرة الجنود الانكشارية بسالة واقداماً[2]. واختل نظام الجيش العثماني فأركن جنوده للفرار طالبين النجاة بالالتجاء الى القوارب في مياه أبي قير، فغرق معظمهم أو رموا بالرصاص من الشاطىء. ومن بين القلائل الذين أفلحوا في الوصول الى سفنهم ضابط شاب لعب دوراً مهماً في تاريخ مصر الحديث هو محمد علي[3]. ووقع قائد العثمانيين مصطفى باشا أسيراً فاستقدمه نابليون إلى مقر قيادته وأكرمه وتحدث إليه حديث الجندي للجندي، فاطلعه مصطفى باشا على سوء الحالة في أوروبا وتألب الدول الثلاث انكلترا وروسيا والنمسا على فرنسا[4].

كانت هزيمة العثمانيين كارثة عظمى، فقدوا فيها ثمانية آلاف بين قتيل وجريح وغريق ووقع ثلاثة آلاف في الأسر، ولم يفقد الفرنسيون إلا ٢٥٠ قتيلاً و٧٥٠ جريحاً. لذلك أظهرت الدولة العثمانية السخط على السر سدني سميث الذي عمل على المجازفة بتلك الحملة المؤلفة من ثمانية عشر ألف رجل. قد يكون جهل السر سدني سميث القائد البحري بالحرب البرية دافعاً للهزيمة، ولكن الحقيقة أن انكلترا لا تبالي

(١) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ١١٢.

(٢) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، ص ٣٨٣.

(٣) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٤٣٦.

(٤) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ١ ص ١٢٥.

بعدد الرجال الذين يتعرضون للموت ما دام أولئك الجنود من جنس غير جنس مواطنيها، وفي تاريخها الاستعماري أعظم برهان على هذا الرأي، والسياسة لا قلب لها ولا ضمير.

رجع نابليون إلى القاهرة ودخلها دخول الظافر يوم ١١ آب ١٧٩٩، وعرض الجنود في شوارع العاصمة والظواهر تدل على أن سلطة الفرنسيين أصبحت راسخة ودولتهم باقية[١]. لكن الشعب المصري، لم يستكن للاحتلال فاندلعت ثورة القاهرة الثانية في ٢٠ آذار ١٨٠٠.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ٢ ص ٨٢.

الفصل الثامن

ثورة القاهرة الثانية

(٢٠ آذار / مارس ـ ٢١ نيسان / ابريل ١٨٠٠)

قامت الحرب في أوروبا ضد فرنسا، فاضطر نابليون للرحيل تاركاً الجنرال كليبر يواجه الدولة العثمانية من جهة، والشعب المصري من جهة ثانية. هذا الشعب الذي لم يستكن للاحتلال فانفجر في ثورته الثانية في القاهرة.

١ ـ دوافع الثورة:

أثناء انتصار كليبر على القوات العثمانية في عين شمس اندلعت ثورة القاهرة الثانية. وأهم الدوافع التي عجلت في اندلاعها كانت:

(أ) ـ اضطراب الأحوال في فرنسا ورحيل نابليون (٢٢ آب / أغسطس ١٧٩٩):

بعد عودته من عكا إلى القاهرة، تسلم نابليون رسالة من حكومة الإدارة محررة في باريس في ٢٦ آيار ١٧٩٩[١]، وتشير الى الأخطار المحدقة بفرنسا، وتطلب إليه العودة بالقسم الأكبر من قواته إن لم يكن الجيش كله وذلك حتى يقود جيوش الامبراطورية[٢].

كان نابليون يجهل حرج الموقف في أوروبا[٣]، ولكن بعد موقعة أبي قير البرية حصل نابليون على الموقف العام في أوروبا سواء من العثمانيين أو من الإنكليز.

---

(١) REYBAUD: Histoire Scientifique et militaire de l'Expedition Française en Egypte vol VI P 268.

- Ader: Histoire de l'Expedition d'Egypte et de Syrie P.263.

(٢) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، ص ١٣٢.

(٣) Ernouf: Le Général Kléber P 209-212.

فاستطاع أن يعرف من القائد العثماني مصطفى باشا الذي وقع في الأسر أن الحرب العامة قامت في أوروبا ضد فرنسا، كما انتهز فرصة المفاوضة مع السير سدني سميث من أجل تبادل الأسرى ليعرف منه بعض أنباء الموقف الأوروبي. فعلم أن الحالة سيئة جداً بالنسبة لفرنسا وأن إيطاليا على وشك أن تضيع من قبضة الفرنسيين[1].

وهكذا اجتمع من العوامل الداخلية والخارجية ما صار يكفي لتوجيه الأنظار إلى نابليون ودعوته للرجوع على عجل لإنقاذ الوطن[2]. فقد رأى أن إنقاذ فرنسا أهم بكثير من توطيد سلطتها في مصر، وأن مصير فرنسا هو على شاطىء السرين لا على ضفاف النيل. لذلك أرسل نابليون الى الصدر الأعظم خطاباً يطلب منه فتح باب المفاوضات، ثم ترك القاهرة في ١٨ آب ١٧٩٩ بحجة القيام برحلة تفتيشية في الدلتا، وذلك بعد آن وصلته الأنباء عن ابتعاد الاسطول الانكليزي عن سواحل مصر. وفي مساء ٢٢ آب، رحل نابليون إلى فرنسا بعد أن قابل منو Menou في مكان بين أبي قير والاسكندرية، وأطلعه على عزمه وعهد اليه بالقيادة في الاسكندرية ورشيد والبحيرة. والرجل الذي ألقيت اليه مقاليد القيادة العامة لجيش فرنسا في مصر واحتمل تبعة مواجهة الشعب المصري ومعالجة الحالة السياسية والحربية في البلاد هو الجنرال كليبر Klèber[3].

(ب) ـ الجنرال كليبر يقود الحملة الفرنسية ويواجه الدولة العثمانية:

أصبح الجنرال كليبر Kléber قائد الجيش الفرنسي في مصر. وكانت أولى واجباته تهدئة خواطر القواد والجند الذين فاجأهم خبر رحيل نابليون إلى فرنسا بغتة، فأصدر كليبر وهو في رشيد[4] منشوراً الى قواد الحملة حمل إليهم نبأ رحيل نابليون، ولم تلبث ان وصلت مصر أنباء تفيد بأن فرنسا قد فقدت ايطاليا، وأن الأسطول الفرنسي انسحب من البحر المتوسط، وأن انكلترا قد استولت على هولندا حليفة فرنسا. وكان لهذه الأنباء أثرها على كليبر فقرر أن يدخل المفاوضة من أجل الجلاء دون قيْد أو

---

(١) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ١٣١.

(٢) BERTHIER: Mémoires du Marechal Berthier. Iére Partie P 170 - 171.

(٣) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٢٣٠.

(٤) PAJOL: Kléber, Sa Vie, Sa corres pondance P 340.

شرط، وذلك في الوقت الذي كان فيه الصدر الأعظم قد أكمل استعداداته لغزو مصر، فوصل العريش منذ ٢٢ كانون الأول ١٧٩٩ وشرع في تضييق الحصار عليها، ثم احتلها يوم ٣٠ كانون الأول ١٧٩٩، وجرى توقيع معاهدة العريش بين العثمانيين والفرنسيين في ٢٤ كانون الثاني ١٨٠٠. وتقضي المعاهدة[1] بجلاء الجنود الفرنسيين عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم وتسليم المواقع التي يجلون عنها إلى الجيش العثماني، وأن يتم الجلاء في مدة ثلاثة أشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط هذه المعاهدة. كما نصت المعاهدة على ضرورة الحصول من السلطان العثماني أو من حلفائه الانكليز والروس على جوازات مرور لضمان عدم الاعتداء على الجيش الفرنسي في أثناء نقله الى المواني الفرنسية.

(جـ) ـ هزيمة العثمانيين في عين شمس (٢٠ آذار / مارس ١٨٠٠):

لكن الحكومة الانكليزية لم تقبل ان يبحر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم إلى بلادهم، وأصرت على أن يسلموا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم كأسرى حرب، وألا يسمح لهم بالذهاب إلى فرنسا. وكان الصدر الأعظم قد اقترب من أبواب القاهرة على رأس ٤٠ ألف رجل، فأدرك كليبر حرج موقفه وأخذ يستعد لاستئناف القتال، وألغى جميع أوامر الجلاء وأخطر الصدر الأعظم بأن الهدنة انتهت[2].

اسرع كليبر في صبيحة ٢٠ آذار ١٨٠٠ بالزحف على رأس جيشه لوقف تقدم العثمانيين الذين وصلت طلائعهم الى المطرية على مسافة ساعتين من القاهرة. وشن هجوماً على الجيش العثماني في معركة طاحنة انجلت عن انهزام العثمانيين وارتداد قواتهم عن مواقعها الى الصحراء[3]، وسيطرته على المطرية وبلبيس والخانكة ثم تشتيت شمل القوات العثمانية. ولم يمض أسبوع حتى كان قد طرد الجيش العثماني من مصر وعادت السلطة مؤقتاً الى الفرنسيين[4].

---

(١) الجبرتي: «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس»، جـ٢ ص ٧.
(٢) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر ص ٤٨٧.
(٣) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، جـ١ ص ١٥٥.
(٤) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ٢ ص ١٤٠.

٢ ـ اندلاع الثورة من بولاق (٢٠ آذار / مارس ١٨٠٠):

أثناء معركة عين شمس كان فريق من جيش الصدر الأعظم وبعض عناصر المماليك قد تسللوا الى داخل القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين. وقد أدى صوت مدافع معركة عين شمس القريب إلى هياج أهل القاهرة[1] الذي وصفه الجبرتي بقوله: «وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال، فهاجوا ورمحوا إلى أطارف البلد، وقتلوا أشخاصاً من الفرنساوية صادفوهم خارجين من البلد ليذهبوا إلى أصحابهم»[2].

وهكذا اندلعت ثورة القاهرة ومعركة عين شمس قائمة، وكان من زعمائها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار والشيخ الجوهري. وقد بدأت الثورة من حي بولاق حيث يقول الجبرتي: «وأما بولاق فإنها قامت على ساق واحد وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله هيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا. . . وعملوا كرانك حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد»[3].

ثار أهل بولاق وحملوا ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصي، وطارت الاشاعات في المدينة بأن الجيش الفرنسي قد انهزم في ميدان القتال. وعمت الثورة انحاء القاهرة واتجه الثوار إلى معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسي في الأزبكية وعددهم نحو عشرة آلاف ثائر، لكن الفرنسيين ردوهم على أعقابهم. وقاتل القاهريون أصدق قتال، فنازلوا الفرنسيين في كل شارع وفي كل منزل وفي كل «دخلة» وعلى كل سطح، وهكذا صمموا المقاومة الشعبية وعنهم أخذتها الشعوب الأخرى[4].

ولم يكتف الثوار الوطنيون بإقامة المتاريس وإنما أسسوا مصنعاً للبارود وآخر لاصلاح المدافع والأسلحة التي ورثوها عن المماليك والتي عثروا عليها في قصور أمراء

---

(١) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٣٣٣.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٠٠.

(٤) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٣٠٧.
أمين سعيد: تاريخ مصر السياسي، ص ٣٦.

المماليك، وثالثاً لصنع القنابل من الحديد الذي جمعوه من المساجد والحوانيت، كما استخدموا بقايا القنابل الفرنسية في صنع قذائف جديدة أطلقوها على الفرنسيين[1].

٣ ـ معاهدة صلح كليبر ـ مراد بك وانقسام الثوار (١٢ نيسان / ابريل ١٨٠٠):

عندما عاد الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس واجه في القاهرة ثورة جديدة، ورأى الضواحي والمناطق المجاورة لها قد اشتركت في الثورة وأمدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد والمواد الغذائية مما دعم الصمود الوطني فازداد قوة في وجه المحتل الفرنسي.

استخدم كليبر عنصر الوقت لفصم عرى الاتحاد بين الثوار قبل أن يضرب الضربة النهائية، فقد كانت الثورة تضم تحت لوائها ثلاثة عناصر هي المصريون العرب سكان القاهرة والأتراك والمماليك وقد اتحدت جميعاً لمحاربة العدو المشترك، ولكن اختلاف المصالح كان عقبة في سبيل دوام هذا الاتحاد. ووجد كليبر الفرصة عندما عقد مع مراد بك معاهدة صلح في ١٢ نيسان ١٨٠٠، تنص على إعطاء مراد بك الحكم والامارة في الصعيد وتكون جرجا العاصمة مقابل تأدية الخراج للجمهورية الفرنسية، كما تعهد كليبر بحمايته في حال مهاجمته. وهناك عدة عوامل دفعت مراد بك إلى عقد هذه المعاهدة منها أن الفرنسيين قد طاردوه في الصعيد لمدة عام وكبدوه خسائر فادحة، وكان مراد يخشى عودة السيادة العثمانية على مصر فيطردوا المماليك منها. وبذلك أمن الفرنسيون جانب مراد الذي أقبل مباشرة على مساعدتهم في إخماد ثورة القاهرة، وسلم إليهم العثمانيين الذين لجأوا اليه يطلبون حمايته.

٤ ـ احراق بولاق ونهاية الثورة (١٨ ـ ٢١ نيسان /ابريل ١٨٠٠):

منذ أن انفجرت الثورة الوطنية انفجر الحقد الفرنسي معها على الوطنيين المصريين، وترجم هذا الحقد بضرب القاهرة بالمدفعية التي كانت قنابلها تتساقط على الأحياء الثائرة، فزادتها قوة واتساعاً.

ففي ١٤ نيسان ١٨٠٠ أنذر الجنرال كليبر العاصمة بالاستسلام، لكن الثوار لم يعبأوا بالانذار. فبدأ الفرنسيون هجومهم يوم ١٥ نيسان وضربوا القاهرة بالمدافع

(١) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ١٤١.

وأضرموا النار في البيوت القائمة وأحرقوا حي بولاق وخربوه[1]، هذا الحي الكبير الذي يعتبر ميناء القاهرة ومستودعاً لمتاجرها. واغتنم الفرنسيون هطول الأمطار وكثرة السيول يوم ١٨ نيسان، فهاجموا بولاق من ناحية النيل ومن ناحية بوابة أبي العلاء، وأشعلوا النار في مباني الحي. واستبسل الثوار والأهالي ولكن الفرنسيين «حصروهم من كل جهة وقتلوا منهم بالحرق والقتل وبلوا بالنهب والسلب وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من حوله النواصي، وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية والدور والقصور. . .»[2].

واستولى الفرنسيون على الخانات والودائع والبضائع وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال، بما في ذلك عدد كبير من النساء وظلوا يعاشرونهن معاشرة الأزواج طوال سنة الاحتلال الباقية[3]. والذي وجدوه منعكفاً في داره ولم يقاتل ولم يجدوا عنده سلاحاً نهبوا متاعه وعروه من ثيابه وتركوه حياً.

ويعتبر جالان Galland، شاهداً على ما حل ببولاق عندما يقول: «. . . أنذرت بولاق بالتسليم، فرفض أهلها كل انذار. . . فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضرباً شديداً. . . لكنهم أجابوا بضرب النار. . . ولجأوا الى البيوت. . . فاضطر الجنود الى الاستيلاء على كل بيت منها والتغلب عليها بقوة الحديد والنار. . . واستمر القتال فجعلنا منطقة بولاق ضراماً وأسلمناها النهب والسلب. . . واشتعلت النار في أحياء بولاق. . . ولما بلغت المأساة مداها طلب الأهالي التسليم فأجيبوا إلى طلبهم. . .»[4].

وأخيراً تدخل علماء القاهرة لوضع حد للمجزرة البشرية إلى أن تم الصلح نهائياً في ٢١ نيسان ١٨٠٠، في اتفاق من تسع مواد وقع عليه ناصف باشا وعثمان أفندي وكيل الصدر الأعظم عن العثمانيين وابراهيم بك عن المماليك وكليبر عن

---

(١) محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، ص ٣٣٥.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ١٠١ - ١٠٢.

(٣) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص: ٤٩١.

(٤) GALLAND: Tableau de L'Egypte Pendant Le Sejour de L'armeé Française Vol 1 p 251 - 264.

الفرنسيين[1]. وينص الاتفاق على جلاء العثمانيين والمماليك عن القاهرة خلال ثلاثة أيام ومنح أهل مصر عامة وسكان القاهرة خاصة عفواً شاملاً[2].

٥ ـ نتائج الثورة:

إذا جاز القول بأن الشعب المصري في ثورة القاهرة الأولى قد هب لقتال الفرنسيين وهو كبير الرجاء في مدد عثماني، فإنه ثار هذه المرة بعد أن رأى العثمانيين يفرون أمام كليبر[3]. واشتدت ثورته عندما رأى المماليك يعقدون الصلح مع الفرنسيين (١٢ نيسان ١٨٠٠) ليصبح مراد بك حاكماً للصعيد تحت حماية الحكومة الفرنسية. ولم يستسلم الأهالي إلا بعد الخراب والحرائق والدمار الذي حل بالقاهرة وبعد المجزرة البشرية التي تُعرض لها الشعب على يد الفرنسيين.

(أ) ـ الاعتداء على المسيحيين ودور الأتراك والمماليك:

على انه مما شوه الثورة وقوع بعض حوادث اعتداء على المسيحيين في المدينة، والاعتداءات المذهبية تشوه الثورات وتجعلها هدفاً للسخط والاستنكار. ولكن مسؤولية الاعتداء على المسيحيين لا تقع على الشعب المصري بقدر ما تقع على العثمانيين والمماليك، فإنهم بشهادة المراجع الفرنسية هم الآمرون بالاعتداء على المسيحيين والمحرضون للعامة، والعامة في كل عصر تتبع بلا تفكير أوامر الزعماء وأهواءهم[4]. فقد أمر ناصف باشا ان يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغم كونهم من رعايا الدولة العثمانية، ويقول الجبرتي: «واستطالوا على من كان ساكن ببولاق من نصارى القبط والشوام فأوقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص»[5]. إلى أن جاء عثمان أفندي أحد ضباط العثمانيين الى ناصف باشا قائلاً:

---

(١) GALLAND: Tableau de l'Egypte pendant le séjour de L'armée Française Vol I P 264 - 267.

(٢) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٣) ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، ص ٦٦.

(٤) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ٢ ص ١٤٧.

(٥) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ١٠٠.

«ليس من العدالة أن تهرقوا دماء رعايا الدولة العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية»[1]. وبث رجاله في المدينة لإيقاف القتل.

وفي المقارنة بين الثورتين نلاحظ، بأن زعامة ثورة القاهرة الأولى (تشرين الأول ١٧٩٨) كانت مصرية وطنية، أما زعامة الثورة الثانية (آذار ١٨٠٠) فكانت خليطاً من المصريين والأتراك العثمانيين والمماليك[2].

والقيادة العليا التي تسلّطت على الثورة ضمت الأتراك العثمانيين والمماليك أمثال ناصف باشا ونصوح باشا وابراهيم بك، أما المصريون أمثال السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروقي والشيخ الجوهري فكانوا العنصر الوطني المحرّك للثورة وأدواتها الحقيقيين.

واستناداً الى هذا الفهم نلاحظ بأن المصريين في ثورتهم الأولى كان عدوهم هو المحتل الفرنسي فتركوا المسيحيين في أمان، أما قادة الثورة الثانية فقاتلوا الفرنسيين والمسيحيين معاً فانحرفوا عن جادة الحق والدعوة الإسلامية.

(ب) - خيانة المماليك:

تمكن الفرنسيون من إخماد الثورة بفضل الحرائق التي أشعلوها في الأحياء الوطنية. وكان مراد بك قد أرسل للفرنسيين عدداً من المراكب المحملة بالحطب والمواد الملتهبة لأحداث الحرائق في القاهرة، وخيانته الأولى بدأت يوم وقع الصلح مع الفرنسيين على حساب الشعب المصري. وعندما انتهت الثورة عقد كليبر صلحاً، ولكن مع من؟ مع فلول العثمانيين والمماليك. وقام الفرنسيون بعرض عسكري وسار في ركابهم مندوبون للمماليك كدليل حي على خيانتهم للمصريين، وأن هذا الشعب يجب أن يعتمد على قوته الذاتية وان ما توهمه ارتباطاً دينياً مع هذه العناصر المجلوبة من القوقاز، لم يكن في الواقع إلا إرتباط النهب والسلب، وإنه إذا لاحت الفرصة لهذه العناصر لكي تقتسم الغنيمة مع الدخيل الفرنسي الأجنبي فلا تتردد.

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ٢ ص ١٣٥.

(٢) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٧٤.

(جـ) ـ الغدر الفرنسي :

ونقض كليبر عهده في العفو عن كل من لهم يد في الثورة فأمر بفرض غرامة كبيرة قدرها اثني عشر مليون فرنك، وخص بعض كبار الأعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة[1]. وصادر أملاك السيد المحروقي الذي كان قد تمكن من الهرب إلى الشام، وأعدم الحاج مصطفى البشتيلي، كما سجن الشيخ السادات في القلعة عندما قرر أنه عاجز عن دفع الغرامة المفروضة عليه وضرب بالعصا. فعم السخط الزعماء والعلماء والشعب، إلى أن تشفع مراد بك للعفو عن هذا الشيخ الجليل فأفرج عنه في تموز ١٨٠٠، بعد أن صودرت ممتلكاته واشترط عليه عدم الاجتماع بالناس. أما عمر مكرم فقد خرج مع العثمانيين من القاهرة الى الشام وقد نهبت داره. وأخذ الفرنسيون يهاجمون المنازل ويستولون على المصوغات الذهبية والفضية وأثاث البيوت وفاء للغرامة الحربية[2]. وأمعن الفرنسيون في ازدراء الشعب وكان من واجب الزعماء مثل السيد عمر مكرم أن يقفوا إلى جانب الشعب وقت المحن، وهذا ما لم يفعله عمر مكرم وغيره خوفاً من انتقام الفرنسيين[3]. ويمكن أن يوصف حكم كليبر الذي لم يقدر له البقاء طويلاً بأنه إرهاب مالي[4] حتى يفي بالتزاماته نحو جيشه، وهو يدرك عدم رغبته في إنشاء مستعمرة دائمة في مصر بل كان ينتظر يوم الجلاء عن مصر، هذا اليوم الذي حرم من مشاهدته بعد أن قضى قتلاً على يد شاب عربي هو سليمان الحلبي.

(د) مقتل الجنرال كليبر على يد سليمان الحلبي (١٤ حزيران / يونيو ١٨٠٠):

كانت ثورة القاهرة الثانية وما وقع فيها من مظالم واساءة وإهانة دافعاً لازدياد روح السخط على الجنرال كليبر والفرنسيين. وهنا ثارت الغيرة الوطنية في شاب عربي من أهل الشام، يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، هو سليمان الحلبي الذي غادر

---

(١) محمد صبيح : كفاح شعب مصر، ص ٥٨.
عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٦٦.

(٢) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٨٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٤.

(٤) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٤٩٢.

بلدته حلب وذهب إلى بيت المقدس، وكان مقيماً فيه وقت اندلاع ثورة القاهرة. ثم توجه الى غزة حيث أقام عشرة أيام واشترى خنجراً. وأخيراً وصل القاهرة على ظهر جمل يوم ١٥ أيار ١٨٠٠، أي بعد أقل من شهر على انتهاء الثورة. وكان يعرف القاهرة من قبل، فقد عاش فيها ثلاث سنوات يطلب العلم في الأزهر. وفور قدومه أقام في الجامع الأزهر بعد أن تقرب من المشايخ الأربعة: عبد القادر الغزي ومحمد الغزي وعبد الله الغزي وأحمد الوالي، وأصلهم جميعاً من غزة. وقد أفضى إليهم بعزمه على الجهاد في سبيل الله. وهنا تجلت الوحدة بين ابن حلب وأبناء غزة لمساعدة أبناء القاهرة ومصر في التخلص من المستبد الظالم.

وأخذ سليمان الحلبي يترصد الجنرال كليبر. وقد تبعه يوم السبت ١٤ حزيران ١٨٠٠ من نقطة الجيزة حتى حديقة داره، حيث كان يسير مع المهندس المعماري بروتان. وهناك أخرج سكيناً طعن بها كليبر في صدره. وحاول المهندس أن يمسك به فعالجه بست طعنات حتى سقط ولكنه لم يمت، وعاد بعد ذلك إلى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليتأكد من الإجهاز عليه[1]. وفي اليوم التالي، بدأت محاكمة سليمان الحلبي بعد أن تم القبض عليه.

يعتبر المحضر الرسمي للتحقيق مع سليمان الحلبي وإصدار الحكم عليه بالموت على الخازوق، وثيقة تاريخية تبين عدة أمور منها أن الفرنسيين استعملوا التعذيب مع قاتل كليبر لكي يحصلوا منه على اعتراف مفصل وقالوا أن هذا يحدث حسب عادات البلاد. كما قبضوا على المشايخ الثلاثة الذين كانوا يخالطونه وقرروا انهم على علم بما دبر وهم عبد الله الغزي ومحمد الغزي وأحمد الوالي، أما الرابع عبد القادر الغزي فقد تمكن من الهرب.

كما نسب الفرنسيون عملية التحريض على قتل كليبر لبعض القادة العثمانيين[2]. وامتلأت المراجع الفرنسية بهذا اللغط وكان الهدف إيجاد صلة بين حادث الاغتيال والسلطات الرسمية العثمانية في اسطنبول.

---

(١) محمد صبيح : كفاح شعب مصر، ص ٦١.

(٢) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ١٤٢.

وحرص الفرنسيون على ألا ينكلوا بالقاهريين انتقاماً من مقتل قائدهم العام كليبر، وحاولوا أن يعطوا التحقيق والمحاكمة صبغة من العدالة، وهذا الأسلوب سليم في الظاهر ولكن النتيجة معروفة سلفاً اعدام سليمان الحلبي على الخازوق.

واستمرت المحاكمة ثلاثة أيام (١٥ ـ ١٧ حزيران)، وصدر حكم الاعدام. وبعد تشييع جنازة كليبر يوم الثلاثاء ١٧ حزيران، بدأ تنفيذ الحكم في الساعة الحادية عشرة ظهراً على هضبة القلعة، وبحضور الجنود الفرنسيين والأهالي المجتمعين لحضور الجنازة. وقد تم قطع رؤوس عبد الله الغزي ثم أحمد الوالي ثم محمد الغزي، وعرضت في ساحة التنفيذ بعد حرق أجسامهم في موقد أقيم لهذا الغرض. وأخيراً نفذ حكم الإعدام بسليمان الحلبي بطريقة شاذة، فقد أحرقوا يده اليمنى أولاً، ثم أجلسوه على الخازوق أربع ساعات ونصف حتى مات. وقد طلب عدة مرات خلالها أن يوافوه بالماء فلم يجبه أحد الى طلبه حتى لا يموت بسرعة[1].

ومهما قيل عن سليمان الحلبي، فيبقى رمزاً للوطنية والبطولة والفكرة العربية أبت عليه نفسه أن يبقى مكتوف اليدين أمام قيام الأجنبي الفرنسي حاكماً مطلقاً في بقعة من الوطن الكبير الذي ينتمي هو إليه.

---

(١) ادوار جوان: مصر في القرن التاسع عشر، ص ١٧٧.

الفصل التاسع

هزيمة الفرنسيين وجلاؤهم عن مصر

(١٣ آذار / مارس ـ ٣٠ أيلول / سبتمبر ١٨٠١)

تسلم الجنرال منو Menou، قائد موقع القاهرة، قيادة الجيش الفرنسي بعد مقتل كليبر[1]. وقد تميز عهده بالظلم والعدوان وخاصة في القاهرة وضواحيها، وبالانقسام الذي حدث في صفوف الحملة الفرنسية. ولقد ظهرت بوادر هذا الانقسام منذ مجيء الحملة الفرنسية وبدء نابليون زحفه من الإسكندرية الى القاهرة، ولكنه وصل الى مرحلة خطيرة بعد عودة نابليون إلى فرنسا. فكان الجنرال كليبر واتباعه يرون ضرورة الجلاء عن مصر وأنه لا أمل في إنشاء مستعمرة في البلاد، ومن ناحية أخرى كان الجنرال منو وأنصاره يقاومون هذه الرغبة ويريدون البقاء في مصر. على أن مقتل كليبر أثر في تحديد مصير الحملة النهائي، فساعد تعيين منو على زيادة هذا الانقسام ولضعف شخصيته فشل في جمع الكلمة وانصرف ضباط الحملة في مصر إلى تدبير المؤامرات. وقد مهد هذا الأمر الطريق أمام التدخل الانكليزي ـ العثماني في حملة مشتركة أنزلت الهزيمة بالفرنسيين، وأجبرتهم على الجلاء عن مصر.

١ ـ الاستبداد عهد الجنرال منو
(١٤ حزيران / يونيو ١٨٠٠ ـ آذار / مارس ١٨٠١):

يعتبر الجنرال منو من ممثلي الفكرة الاستعمارية الفرنسية في مصر، وممن عارضوا اتفاق العريش لأنهم رأوا فيه انتقاصاً من كرامة الجيش الفرنسي وعبثاً بمصالح الجمهورية. وهذا وحده كاف للدلالة عن ما في نفسه من نزعة الظلم والعدوان التي تمثلت بـ :

---

(١) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٣١١.

(أ) ـ فرض الضرائب الجديدة وإقامة التحصينات حول القاهرة:

سيطرت على سياسة منو الداخلية فكرة ظاهرة هي أن مصر «مستعمرة فرنسية»، فأخذ يجمع الباقي من الغرامة التي فرضها كليبر على القاهرة كما فرض عليها ضريبة جديدة قدرها أربعة ملايين فرنك[1]. ولقد زادت هذه السياسة من نفور المصريين الذين حز في نفوسهم أيضاً أن يشاهدوا الفرنسيين وهم يهدمون بيوتهم ووكالاتهم وحوانيتهم كي يستخدموا حجارتها في أعمال التحصينات التي أقاموها حول القاهرة أو لإفساح الطريق حتى يسهل على قواتهم الانتقال في قلب المدينة. وقد وصف الجبرتي ذلك بقوله:

«تهدم للناس من الأملاك والعقار ما لا يقدر قدره وذلك مع مطالبهم بما قرر على أملاكهم ودورهم من الفردة فيجتمع على الشخص الواحد النهب والهدم والمطالبة في آن واحد...»[2].

(ب) ـ نزوح الأهالي من القاهرة:

ضج سكان القاهرة من الظلم والعدوان، وكثر عدد النازحين من المدينة فراراً من الظلم. وأمعن الفرنسيون في الهدم والتخريب بمختلف الوسائل. وزاد الأمر سوءاً أن «زاد النيل زيادة مفرطة لم يعهد مثلها فيما رأينا، حتى انقطعت الطرقات وغرقت البلدان وطف الماء من بركة الفيل وسال إلى درب الشمسي وكذلك حارة الناصرية، وسقطت عدة دور من المطلة على الخليج»[3].

(جـ) ـ اغلاق الأزهر:

ولعل أهم محنة من الناحية الروحية الدينية تعرضت لها مصر، هي اضطراب الدراسة في الأزهر وما أصابه من تدمير وإهانة أثناء الحكم الفرنسي عامة وفي عهد منو خاصة حيث ظل مغلقاً مدة سنة كاملة حتى جلاء الفرنسيين نهائياً. فالأزهر كان معقل الثورات ضد جيش الاحتلال ويتجمع فيه العلماء والزعماء وحولهم أفراد الشعب

---

(١) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٦٧.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣ ص ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٣ ص ١٤٤.

عندما تحل بهم نكبة، ويكفي أن الخطة التي انتهت بمقتل كليبر دبرت فيه[1]. فلا غرابة إذا ما انصب جام غضب الفرنسيين عليه.

٢ ـ الحملة الانكليزية ـ العثمانية وهزيمة الجيش الفرنسي (٨ آذار / مارس ـ ٢٧ حزيران / يونيو ١٨٠١):

بذلت انكلترا جهوداً كبيرة في أوروبا والشرق الأوسط لإخراج الحملة الفرنسية من مصر. وقد نجحت في تحطيم الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية، ليسيطر الأسطول الانكليزي على البحر المتوسط، ويشدد الحصار على الشواطىء المصرية، مما أعجز فرنسا عن إرسال النجدات والإمدادات إلى جيش الشرق في مصر.

كما بذلت الدولة العثمانية رغم ضعفها كل ما تستطيع لإخراج الحملة من مصر. واشترك السلطان في المجهودات الحربية التي قامت بها انكلترا لطرد الفرنسيين، واستغل نفوذه الديني وسيطرته الروحية على المصريين، وأخذ يحرض المسلمين على القيام ضد الكفرة الفرنسيين.

ثم وضع الانكليز والعثمانيين خطة لمهاجمة مصر من نواح متعددة: من ناحية الشمال بجيش انكليزي ـ عثماني، ومن ناحية الشرق بجيش عثماني، ومن الجنوب بقوة حربية من الهند تهاجم مصر من ناحية البحر الأحمر. وقد وصلت هذه الحملات كلها واشتركت في القتال ما عدا الحملة الهندية ـ الانكليزية التي وصلت متأخرة لأن العمليات العسكرية كانت قد انتهت.

ومع أن منو كان يعلم باستعدادات الانكليز والعثمانيين لإرسال حملة كبيرة على مصر، وكان يتوقع حدوث الغزو في جهة أبي قير والاسكندرية، إلا أنه لم يتخذ أي إجراء حاسم لتقوية الدفاع عن هذه الجهات، وكانت النتيجة أن تمكنت الحملة الانكليزية من النزول في أبي قير يوم ٨ آذار ١٨٠١، ويوم ١٣ آذار دارت معركة

---

(١) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ١٤٤.

شديدة بين الفريقين هي معركة سيدي جابر[1] وانتهت بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم الى أسوار الاسكندرية.

وعم الاضطراب بين الفرنسيين في القاهرة عندما علموا بقدوم الحملة الانكليزية - العثمانية، فغادر منو القاهرة للدفاع عن الاسكندرية. ونشبت معركة كانوب في ٢١ آذار، وهي من أهم المعارك الفاصلة التي حددت مصير الجيش الفرنسي في مصر[2]. وتولى السير رالف ابركرومبي قيادة الجيش الانكليزي ويتألف من ١٦ ألف من المشاة و٢٠٠ من الفرسان، بينما كان الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال منو لا يزيد عن ٨٣٥٠ من المشاة و١٣٨٠ من الفرسان. ومن نتائج المعركة أن ارتد الجيش الفرنسي إلى أسوار الاسكندرية وانفتح الطريق أمام الجيش الانكليزي للتوغل في البلاد. لكن الجيش الانكليزي انتظر حتى مجيء الاسطول العثماني[3] يوم ٢٥ آذار ١٨٠١، وكان بقيادة حسين قبطان باشا ويقل ستة آلاف جندي من الانكشارية.

٣ ـ جلاء الفرنسيين عن مصر
(٢٧ حزيران / يونيو ـ ٣٠ أيلول / سبتمبر ١٨٠١):

تابعت الحملة الانكليزية - العثمانية زحفها بقيادة الجنرال هتشنسن Hutchinson وحسين قبطان باشا، فاحتلت رشيد ثم الرحمانية وقلعتها في ٩ أيار ١٨٠١، وواصلت زحفها على ضفة النيل اليسرى. وكان الصدر الأعظم قد دخل مصر من سوريا بجيش يبلغ ١٥ ألف رجل واستولى على دمياط والصالحية وزحف على ضفة النيل اليمنى[4]. وتقابل قواد الجيشين الحليفين عندما اقتربوا من القاهرة، وبنى الانكليز جسراً من الخشب لاتصال الجيشين ويقدر عددهما بنحو أربعين ألفاً بينما لم يكن مع قائد الحامية الفرنسية في القاهرة الجنرال بليار الا نحو عشرة آلاف.

---

(١) سميت هذه المعركة «معركة سيدي جابر» لأنها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه أما الانكليز فيسمونها معركة (١٣ آذار ١٨٠١) والفرنسيون يسمونها معركة نيكوبوليس وهي اسم روماني لضاحية من ضواحي الاسكندرية ومعناها (مدينة النصر).

عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ٢ ص ٢١١.

(٢) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٧٠.

(٣) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ١٥٥.

(٤) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ص ٥١٨.

(أ) ـ اتفاق الجلاء عن القاهرة (٢٧ حزيران / يونيو ١٨٠١):

شددت الحملة الانكليزية ـ العثمانية الحصار على القاهرة وقد قلت فيها المؤن والذخيرة، فاضطر قائدها الجنرال بليار الى إجراء مفاوضات لتسليم المدينة وجلاء الفرنسيين عنها، وفي ٢٧ حزيران ١٨٠١ وضع اتفاق الجلاء عن القاهرة. لكن الجنرال منو رفض قبوله كما رفض سابقاً اتفاق العريش، فأرسل إلى قائد حامية القاهرة الجنرال بليار يأمره بمتابعة الحرب حتى النصر أو الموت، ولكن بليار أصر على تنفيذ الجلاء معتبراً مواصلة الحرب نوعاً من الانتحار[1]. وفي ١٣ تموز ١٨٠١ خرجت الحامية الفرنسية من القاهرة متجهة إلى الاسكندرية، ورحل الفرنسيون في السفن النيلية الى رشيد ومنها إلى أبي قير ثم أبحرت بهم السفن أوائل شهر آب ١٨٠١ إلى فرنسا.

(ب) ـ اتفاق الجلاء عن الاسكندرية (٣١ آب / أغسطس ١٨٠١):

شدد الانكليز الحصار على الجنرال منو، وتأزمت الحالة في ضواحي الاسكندرية بسبب قلة الغذاء ونفاذ الذخيرة، ثم عززوا أسطولهم في البحر المتوسط بأربعين سفينة و١٢٠ زورقاً حربياً. وجاءت الحملة الهندية بقيادة الجنرال بيرد على ساحل البحر الأحمر واحتلت القصير، وتقدمت داخل الأراضي المصرية للاتصال بالقوات الانكليزية على سواحل البحر المتوسط. فأدرك منو أن مواصلة القتال ستقضي على البقية الباقية من رجاله، فعقد في ٢٦ آب ١٨٠١ مجلساً حربياً أجمعت فيه الأراء على طلب الهدنة[2]. ووقع اتفاق يسلم الاسكندرية في ٣١ آب ١٨٠١، وينص على جلاء الفرنسيين عن الاسكندرية خلال عشرة أيام من تاريخ التوقيع، وأن يسلم الفرنسيون جميع سفنهم وينقلون على سفن الحلفاء ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع فقط، وعليهم تسليم باقي مدافعهم وذخيرتهم[3]. وكانت الشروط التي حصل عليها الجنرال منو هي بعينها الشروط التي حصل عليها كليبر في العريش قبل تسعة عشر شهراً، وحصل عليها بليار في القاهرة قبل شهرين، وهي الشروط التي نعتها منو بأنها مخزية فظيعة.

---

(١) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي. جـ١ ص ١٨١.

(٢) المرجع نفسه جـ ١ ص ١٨٢.

(٣) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ١٥٩.

أخذت السفن المقلة للجنود الفرنسيين تقلع من الاسكندرية خلال الفترة ١٤ ـ ٣٠ أيلول ١٨٠١ قاصدة فرنسا. وبجلاء الفرنسيين عن الاسكندرية طويت صفحة الاحتلال الفرنسي في مصر بعد أن استمر زهاء ثلاث سنوات دون أن يتحقق لفرنسا النتائج العسكرية المرجوة، بل أفقدتها الحملة سيادتها في الشرق الأوسط، فاستفادت بذلك انكلترا التي أخذت تتحين الفرص للسيطرة على مصر.

الفصل العاشر

نمو الحركة الوطنية في مصر

(١٨٠١ - ١٨٠٧)

بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر في ٣٠ أيلول ١٨٠١ برزت انكلترا كدولة تحمي استقلال الدولة العثمانية السياسي وتصون سلامة أراضيها(١)، فهي التي ساهمت في هزيمة الفرنسيين وطردهم من مصر.

وبينما كانت لعبة الصراع الدولي بين القوتين العظميين انكلترا وفرنسا تحتدم، كانت لعبة الصراع المحلي في مصر تحتدم أيضاً. فبعد هزيمة فرنسا انفجر الصراع بين القوى السياسية المحلية في مصر التي كانت قد اتحدت باتحاد مصلحي ضد عدوها الواحد الفرنسيين، لذلك كان طبيعياً أن ينفجر هذا الصراع بين حلفاء الأمس لأن اتحادهم لم يكن استراتيجياً وإنما مرحلياً وقتياً. وفي خضم هذا الصراع كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو، وهي تحمل في أعماقها الفكرة العربية، لتتخلص من حكم المماليك ثم الحكم العثماني، والمناداة بمحمد علي والياً على مصر.

١ - صراع القوى السياسية المحلية في مصر (١٨٠١ - ١٨٠٤):

كان المماليك والعثمانيون بمثابة القوى الفوقية داخل مصر. فالمماليك كانوا يطمعون باسترداد دورهم بعد هزيمة الفرنسيين، إلا أن صراعهم الشخصي المتمحور حول محمد بك الألفي الذي كان يدعو إلى الحماية الانكليزية لمصر، وبين عثمان بك البرديسي المؤيد لعودة مصر كولاية عثمانية. هذا الصراع كان عاملاً في تلاشي قوة المماليك السياسية حتى قبل فقدانهم تماماً للسلطة.

---

(1) ANDERSON: The Eastern Question, P 29.

وكـان العثمانيـون يعتـبرون مصر بصـورة شرعية إحـدى ولايـاتهم التي أراد الفرنسيون السيطرة عليها، لـذلك رأوا أن عـودة مصر إلى ما كـانت عليه قبل الحملة كان أمراً شرعياً وليس وضعاً سياسياً جديداً. وكان يمثل الدولة العثمانية في مصر محمد خسرو باشا الذي اعتمد في تشديد قبضته على مصر والمصريـين على مسـاندة القـوات العثمانية البرية والبحرية[1].

أما القوى التحتية في النضال المصري فقد كانت قوى الحركة الوطنيـة المصرية، التي كانت تنمو تدريجياً وتنساب بهدوء في خط سيرها المستمر في الدفع النضالي والذي أثمر تلك الحركات الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي، لذلك كان طبيعياً أن ترفض هذه القوى تسلط القوى الفوقية على نضالها، فرفضت المماليك والعثمانيين معاً، وبدأت في بحثهـا عن محور تـدور من حولـه وينظم قـواها فـتزعم هذه الحـركـة أولاً بعض علماء الدين، حتى استطاع محمد علي[2] أن يفرض نفسه نقطة الالتقاء لقوى الحركـة الوطنيـة وأن يحكم مصر.

وبذلك استطاع محمد علي أن يوظف صراع القوى المحلية على السلطة لصالـح وصـوله هـو إلى السلطة، مع أنـه لم يكن مصرياً كـما لم يكن عربياً بـل كـان عثمانيـاً مسلماً[3].

لذلك فإن دور الحركة الوطنية في مصر بعد سنـة ١٨٠٥ سيستجد عملياً في تحرك محمد علي على الصعيدين الداخلي والخارجي.

وبالاضافة إلى هذه القوى المحلية كانت انكلترا ترى نفسها أكثر أهلية من غيرها

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، حـ ٢ ص ١٤٤.

(٢) محمد علي (١٧٦٩ - ١٨٤٩). ولد في مدينة قوله الألبانية سنة ١٧٦٩، وهو عثماني مسلم لا يمت للألبانيين بنسب، والثابت أن أباه «ابراهيم آغا» كان رئيس الحرس المنوط به حفظ المدينة. ثم تعلم أساليب التجارة في صغره وتزوج في الثامنة عشر من إحـدى قريبـات حاكم قـولة وكـانت أرملة ذات ثروة فـأنجب منها ابراهيم وطوسون واسماعيل. وعندما شرعت الدولة العثمانية في محاربة الفرنسيين في مصر صدر الأمر إلى متصرف قولة بتقديم المساعدة، فأرسل كتيبة من ٣٠٠ جندي بقيادة ابنه علي آغا وكان محمد علي معاوناً له. وبسبب بلائه في المعارك رقي إلى رتبة قائد، ثم ألحق بمعية خسرو باشا أول والي عثماني بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر.

(٣) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٢٨.

في السيطرة على مصر في سبيل الحفاظ على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة التي تتلخص بتأمين مواصلاتها مع الهند عبر شواطىء البحرين المتوسط والأحمر، وتأكيد حمايتها للهند. وكانت مصر محور هذه الاستراتيجية لذلك فقد حاولت انكلترا إعادة حكم المماليك إلى مصر بسبب ضعفهم وبالتالي سهولة السيطرة عليهم أي السيطرة على مصر.

وعلى هذا الأساس انفجر الصراع بين القوى الفوقية «المماليك والعثمانيون» علناً بعد أن كان مستتراً، فرأى الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا وقائد الأسطول العثماني القضاء على المماليك قبل مغادرة مصر، إلا أن التدخل الانكليزي لصالح المماليك جعل مصر تنقسم بين العثمانيين الذين سيطروا على الوجه البحري والقاهرة، وبين المماليك الذين سيطروا على الصعيد. لكن انكلترا رأت بعد حين أن مصالحها أصبحت تتضارب مع مصالح المماليك الذين أصبحوا عبئاً على السياسة الانكليزية تجاه الدولة العثمانية، لذلك قررت سحب اعترافها بهم، فانسحبت من مصر في آذار ١٨٠٣[1]. عندها استغل خسرو باشا هذا الظرف السياسي لضرب المماليك مجدداً[2]. وهنا ظهرت مقدرة محمد علي السياسية فرأى أن «إتفاق الأقليات» من شأنه خلخلة قوة العثمانيين، فعقد اتفاقاً ظرفياً مع المماليك الذين أطاحوا بالعثمانيين وظل هو خارج اللعبة حتى اطمأن إلى إضعاف قوة العثمانيين، فاستدار نحو المماليك القوة الأضعف التي أصبح القضاء عليها سهلاً بعد ضربها وإضعافها بقوة العثمانيين، وبعد كشف القوتين أمام القوى الوطنية المصرية.

٢ ـ ثورة الشعب المصري على المماليك في القاهرة (آذار / مارس ١٨٠٤):

تخلص محمد علي من قوة العثمانيين، ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك. فترك السلطة ظاهراً لزعماء المماليك حتى يجعلهم هدفاً لسخط الشعب، وكان المماليك لا يدعون فرصة إلا ويفرضون غرامة أو ضريبة جديدة فاشتد الضيق بالأهالي. وفي آب

---

(١) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ٩٦.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ١٤٥.

١٨٠٣ انخفض منسوب نهر النيل[1]، بما أثر في الزراعة وارتفاع أسعار الغلال وشح الخبز في الأسواق.

وفي ٧ آذار ١٨٠٤ فرض المماليك ضريبة جديدة، فثار القاهريون في اليوم التالي. وانتهز محمد علي ثورة القاهرة للإطاحة بحكومة المماليك، فبادر بالنزول وسط الجماهير يجتمع بالمشايخ ويسير معهم في الشوارع[2]، ويتعهد لهم بإبطال الضرائب الجديدة. وأمر جنوده في ١٣ آذار بمهاجمة المماليك، فاضطروا للفرار من القاهرة. وهكذا كسب محمد علي الشعب والمشايخ إلى جانبه.

واندلعت الثورة أيضاً في رشيد ودمياط وسائر المناطق ضد الحكام المماليك الذين هربوا إلى الصعيد. وزالت دولتهم ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

٣ ـ ثورة الشعب المصري بزعامة عمر مكرم على الوالي العثماني أحمد خورشيد باشا (٢ أيار/مايو ـ ٥ آب/أغسطس ١٨٠٥):

بعد فرار المماليك أطلق محمد علي سراح خسرو باشا الذي صارت له ولاية مصر، ولكن الجند الألبان لم يرضوا به فرحل إلى الأستانة. ثم وصل أحمد خورشيد باشا إلى القاهرة في ٢٦ آذار ١٨٠٤ وأصبح واليا على مصر. وقد أسرف خورشيد باشا في ظلم الشعب فاستقدم جنوداً أشداء من الأكراد عرفوا باسم الدلاة[3] ليتخلص بهم من محمد علي وجنوده الألبانيين، فدخلوا القاهرة في ٢٩ شباط ١٨٠٥، ونزلوا في مصر القديمة والقرى المجاورة.

وفرض خورشيد باشا الضرائب الجديدة حتى يسدد مرتبات الجنود الألبان المتأخرة، فأثار غضب القاهريين واشتد الضيق بهم. واعتدى الدلاة على أهالي مصر القديمة يوم الأربعاء أول أيار ١٨٠٥، فاقتحموا المنازل وطردوا السكان واغتصبوا النساء وقتلوهن، وخطفوا الأطفال، وأخذوا ثياب الأهالي ومتاعهم.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ٢ ص ٣٢٠.

(٢) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ١٧٣.

(٣) الدلاة أو الدلاتية كلمة تركية معناها المجانين ومفردها دېلي وأطلقت هذه اللفظة على الجنود الأكراد لشهرتهم بالبسالة والتهور والاندفاع الذي يصل إلى حد الجنون.

وفي اليوم التالي ٢ أيار عمل المشايخ على تعبئة الرأي العام، ولم تمض ساعة واحدة حتى أغلقت الحوانيت والوكالات وأقفرت الأسواق من روادها. وتدفقت الجماهير إلى حي الأزهر تطلب من المشايخ بصوت مرتفع الإذن لها في الزحف على مصر القديمة والأنقضاض على الدلاة[1]. وحتى تهدأ الأمور أرسل خورشيد باشا كتخداه[2] إلى جامع الأزهر يعرض على المشايخ هدنة مدتها ثمانية أيام يتعهد فيها بردع الجنود الدلاة مقابل تهدئة الشعب. ولكنه لم يجد أحداً في الجامع فتوجه إلى دار شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي، وعقد اجتماعا شهده المشايخ. ولما انصرف الكتخدا بعد أن انفض الاجتماع فوجيء بالجماهير تقذفه بالطوب وتوسعه سباً وشتماً[3]. وعلى الرغم من عقد الهدنة فقد ظلت الدراسة معطلة في الأزهر وبقيت معظم الحوانيت مغلقة. وقام محافظ القاهرة ورئيس الشرطة بجولة في شوارع القاهرة يأمران التجار بفتح حوانيتهم، لكن أحداً لم يمتثل لأوامرهما. وزاد الأمر سوءاً إعلان خورشيد باشا في ١٠ أيار عزمه على فرض ضريبتين جديدتين فازداد سخط الناس وهياجهم.

كانت هذه الثورة قوامها الشعب وزعماؤه، ومن الخطأ أن يظن أحد أن محمد علي هو الموعز بهذه الثورة[4]. فإن منطق الحوادث يدل على أنها نتيجة تذمر الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم، وقد اغتنم محمد علي تلك الثورة ليحقق سيطرته على مصر. ومنذ ذلك الوقت ظهر تأثير محمد علي في شؤون مصر[5].

وقد تبين من سير الحوادث أن السيد عمر مكرم[6] هو المنظم للثورة الشعبية التي قامت ضد الوالي العثماني أحمد خورشيد باشا.

---

(١) VAULABELLE: Histoire Scientifique et militaire de L'Expédition Française en Egypte T9. P. 206-207.

(٢) الكتخدا: هو الوكيل، ويساعد الوالي في حضوره وينوب عنه في غيابه.

(٣) MENGIN: Histoire de L'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly T. I. P. 159.

(٤) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ٢ ص ٣٣٢.

(٥) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، جـ ١ ص ٩٨.

(٦) عمر مكرم: ولد في أسيوط ونشأ فيها ويعتبر من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب. وكان نقيباً للاشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية، وفي طليعة المتطوعين للدفاع عن القاهرة ضد الاحتلال الفرنسي. وبعد معركة الاهرام هاجر إلى يافا، فنهب الفرنسيون أملاكه وأمواله. وبعد احتلال نابليون يافا أمر بارجاعه إلى مصر، فعاد إليها. لكنه عاش في عزلة عن الفرنسيين حتى كانت ثورة القاهرة الثانية فكان من =

وفي ١٢ أيسار ١٨٠٥ اجتمع زعماء الشعب في دار المحكمة الكبرى (بيت القاضي)، وطلبوا عقد مجلس شرع واختصام الوالي فيه كما طلبوا من القاضي استدعاء كبار رجال الحكومة لمصارحتهم بما استقر عليه رأي زعماء الشعب، فحضر من طرف الوالي خمسة مندوبين.

وفي هذا اليوم كانت الشوارع المؤدية إلى دار المحكمة تغص بالجماهير وهم يرددون هتافات عدائية ضد خورشيد باشا.

واتفق الزعماء على كتابة مذكرة تتضمن الوسائل العملية لتحقيق رغبات الشعب. لم يسجل الجبرتي بنود مذكرة زعماء الشعب، بل أوردها في صورة عامة عندما قال:

«واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات، ففعلوا ذلك، وذكروا فيه تعدي طوائف العسكر، والإيذاء منهم للناس، وإخراجهم من مساكنهم، والمظالم والفرد، وقبض مال الميري المعجل، وحق طرق المباشرين، ومصادرة الناس بالدعاوي الكاذبة وغير ذلك»[1].

وتذكر وثائق الخارجية الفرنسية[2] أن هذه المطالب بلغ عددها واحداً وعشرين مطلباً كان أهمها: عدم مرابطة القوات العسكرية في القاهرة وضرورة انتقالها إلى الجيزة، وعدم السماح لأي جندي بدخول القاهرة حاملاً سلاحاً معه، والامتناع عن فرض أية ضريبة على سكان القاهرة بدون موافقة المشايخ والأعيان، ثم إعادة المواصلات بين القاهرة والوجه القبلي.

= زعمائها. وعندما أخذ الفرنسيون الثورة هاجر من مصر مرة ثانية. ثم عاد إليها بعد جلاء الفرنسيين عن مصر فزادت منزلته القديمة في نفوس الشعب وعادت إليه نقابة الاشراف التي نزعت منه أثناء هجرته الأولى. وكانت له اليد الطولى في الثورة التي قامت ضد المماليك (١٨٠٤) وضد الوالي التركي (١٨٠٥)، فهو أول من دعا لخلع خورشيد باشا واختيار محمد علي بدلاً منه.

(١) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣ ص ٣٢٩.

(٢) DOUIN: Mohamed Aly, Pache du caire I805-807 doc. no. 26.

VAULABELLE: Histoire Scientifiaue et militaire de L'Expédition Française T 9 p 210 - 211.

أما الوثائق الانكليزية[1] فتزيد على هذه المطالب مطلباً آخر هو تخصيص جزيرة الروضة في القاهرة لإنشاء الحانات والمحال المعدة للترفيه عن الجنود. كما أنها ذكرت أن خطر فرض الضرائب يمتد إلى سائر أنحاء القطر المصري وليس على القاهرة وحدها كما جاء في الوثيقة الفرنسية.

وشعر خورشيد باشا بخطورة الموقف وأدرك مدى تأثير السيد عمر مكرم في إشعال الثورة حتى تحقيق هذه المطالب، فاعتقد أن بمقدوره إخماد هذه الحركة باعتقال عمر مكرم ثم التخلص منه. فلما تسلم المذكرة التي تتضمن مطالب الشعب أعلن أنه لا يستطيع أن يقرر شيئاً قبل التشاور مع عمر مكرم ولهذا فهو يرجوه أن يصعد إلى القلعة لمقابلته، ولكنه رفض الذهاب إليه[2] بعد أن أدرك أنه أعد أشخاصاً لإغتياله.

وعندما علم خورشيد باشا برفض الزعماء قبول دعوته أعلن رفضه مطالب الشعب جملة وتفصيلاً. فيئس الزعماء من أي إصلاح يأتي على يده، وبيتوا النية على ضرورة عزله[3]. وهكذا اجتمع زعماء الشعب ثانية في دار المحكمة وسط الجماهير الكثيرة في ١٣ أيار ١٨٠٥[4]، وأصدروا قراراً بخلع خورشيد باشا واختيار محمد علي والياً على مصر. ويصف الجبرتي ذلك بقوله:

«اجتمعوا (أي المشايخ) ببيت القاضي، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول إلى بيت القاضي، وقفلوا بابه. وركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له: ـ إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا. ولا بد من عزله من الولاية.

فقال: ـ ومن تريدونه يكون والياً؟

قالوا له: ـ لا نرضى إلا بك، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير.

فامتنع أولاً ثم رضي، وأحضروا له كركاً وعليه قفطان[5]، وقام إليه السيد عمر

---

(١) DOUIN: L'Angleterre et L'Egypte T 2 doc. no 165 P. 231 - 233.

(٢) MENGIN: Histoire de l'Egypte sous le gouvernemennt de Mohammed Aly T 1 P. 161.

(٣) GUEMARD: Les Rformes en Egypte d'Ali Bey El Kébir á Méhémet Ali P. 87.

(٤) احمد شفيق باشا: حوليات مصر السياسية «تمهيد» جـ ١ ص ٢.

(٥) كان الكرك (رداء الفرو) والقفطان من شارات الحكم في تلك الوقت.

مكرم والشيخ الشرقاوي، فألبساه له وذلك وقت العصر. ونادوا بـذلك في تلك الليلة في المدينة، وأرسلوا إلى أحمد باشا خورشيد الخبر بذلك».

وصف المؤرخ الفـرنسي فولابـال Vaulabelle[1] مذكـرة زعماء الشعب بـأنها وثيقة الحقوق Bill des droits، وأنها تشبه وثيقـة قانـون الحقوق Bill of Rights الـذي أقره البرلمان الانكليزي سنة ١٦٨٩ عقب ثورة الشعب الانكليزي سنة ١٦٨٨ وأسفرت عن إنهاء حكم أسرة ستيورات في إنكلترا. وتعتبر هذه الوثيقة من القواعـد التي قامت عليهـا حرية الشعب الانكليزي، وأعلن فيها أن حق الملك في العرش مستمد من إرادة الشعب الممثـل في البرلمـان، وأن البرلمـان له حق نقـل التاج وفقـاً لمصلحة البـلاد، وأنه لا يجـوز للملك فرض الضرائب بدون موافقة البرلمان.

والوثيقة التي كـانت تحمل تـوقيع العلماء تشبـه قانـون الحقوق. فهي قـد أنهت حكم أحمد خورشيد باشـا وكان آخـر والي عثماني يحكم مصر وفق النـظام الذي أرسى قـواعده السلطان سليم الأول عقب الغـزو العسكري العثـماني لمصر سنة ١٥١٧، وأتت بمحمد علي والياً على مصر فاستطاع أن ينشيء حكماً وراثياً فيه يتوارثه أبناؤه وأحفـاده من بعده. كما أنها تتضمن نصاً بعدم فرض أية ضريبة دون موافقة الشعب ممثلاً في زعـمائه المشايخ والأعيان، وهذا النص صـورة عن المبدأ الـدستوري المعـروف No Taxation Without repesentaronti أي لا ضريبة بدون قانون يعرض على ممثلي الشعب.

والفارق بين هـاتين الـوثيقتين محصـور في مجال التـطبيق العملي، فملوك انكلترا احترموا وثيقة قانون الحقوق والتزموا بها، بينما رفضهـا خورشيـد باشـا ثم قبلها محمـد علي ولكنه لم يعمل بها أكثر من سنتين ثم عبث بها.

وبهـذه المبايعـة تم الانقلاب العـظيم في حياة مصر السيـاسية، فهـذه هي المـرة الأولى التي يعـزل فيهـا الشعب المصري واليـاً ويختـار غـيره عـلى أسـاس الحـريـة والاستقلال. ولم تعترف الـدولة العثـمانية بهـذا الاجراء، فقـد استمرت عـلى تأييـدها لخورشيد باشا.

---

(١) VAULABELLE: Histoire scientifique et Militaire de l'Expedition Française eu Egypte T 9 P. 211.

ومن خلال هذه التطورات تتضح الحقائق التالية[1]:

- إن السيد عمر مكرم هو الذي تزعم انقلاب (أيار ١٨٠٥) لعزل خورشيد باشا وتوليه محمد علي بدلاً منه.

- قرر المصريون مبدأ دستورياً هاماً عندما قرر زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم حق الأمة في اختيار وتعيين حاكمها.

- إن تعيين محمد علي كان بصفة قائمقام (أي والٍ بالنيابة) حتى يصدر السلطان مرسوماً بتعيينه. وقد قبل محمد علي الشروط التي عرضها عليه مكرم وكانت نفس الشروط التي رفضها من قبل خورشيد باشا وأقر بالرجوع إلى زعماء الشعب في شؤون الدولة.

- إن عمر مكرم كان يرى أن والي مصر يجب أن يكون عثمانياً.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لم ينادِ الشعب المصري بعمر مكرم أو بزعيم مصري آخر والياً على مصر، بل اتجه الاختيار إلى والي عثماني هو محمد علي؟.

الحقيقة أن الثورة الشعبية كانت موجهة ضد أحمد خورشيد باشا بصفته الشخصية عندما أسرف في الظلم، ولم تكن الثورة موجهة ضد السلطان العثماني[2]. وذلك أن المجتمع في مصر كان مجتمعاً دينياً، ولم يكن الشعب المصري ينظر إلى السلطان العثماني على أنه حاكم أجنبي بل نظر إليه على أنه سلطان المسلمين. وكانت سياسة الدولة العثمانية تقضي بأن يكون والي مصر عثمانياً، فإذا تم اختيار عمر مكرم أو غيره من زعماء البلاد والياً فإن ذلك يعتبر في ضوء مفاهيم ذلك المجتمع الديني ثورة على النظام وخروجاً على طاعة سلطان الإسلام، وهي الطاعة التي كانت أجهزة الحكم العثماني تحرص على تأكيدها بترديد الآية القرآنية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾[3]. ومن ناحية أخرى فإن السلطان العثماني لن يقر تعيين مصري والياً على مصر، بل يفسر الثورة عندئذ بأنها حركة فردية لتحقيق مآرب شخصية. لذلك حرص عمر مكرم أن يجنب الثورة عوامل الفشل

---

(١) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم ص ١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

(٣) سورة النساء: آية ٥٩.

فاشترط أن يكون الوالي الذي ينتخبه الشعب عثمانياً. فكان اختياره محمد علي الذي تودد إليه، بعد أن أظهر عطفه على الشعب حتى يصل مبتغاه.

والخلاصة أن المصريين في ثورتهم هذه لم يتطلعوا إلى تغيير جذري في وضع مصر السياسي، ولم يطالبوا باستقلال بلادهم عن الدولة العثمانية. ولكن الروح الجديدة التي دبت في الشعب من زيادة الوعي واليقظة هي التي دفعته إلى مقاومة الظلم بالإصرار على تغيير شخص الحاكم، وحال الولاء الديني للسلطان دون مطالبة الشعب بالانفصال عنه[1]. مما يؤكد استنتاجنا الأول أن حركة المقاومة الوطنية المصرية ضد الاحتلال الفرنسي كانت في جانب من جوانبها للدفاع عن «أرض السلطان» إلى حد ما.

وهكذا حمل زعماء الشعب إلى خورشيد باشا قرار عزله فأجاب: «إني مولى من طرف السلطان، فلا أعزل بأمر الفلاحين ولن أبرح القلعة إلا بأمر الباب العالي»[2].

وقد اعتصم خورشيد باشا بالقلعة، وسارع إلى اتخاذ تدابير عسكرية وسياسية متحدياً الشعور الشعبي الجارف ضده. فنقل إلى القلعة ذخائر حربية ومواد تموينية استعداداً لتلقي الحصار إذا اضطرته الظروف لذلك، وبعث إلى الحكومة العثمانية يطلب تأييدها له في موقفه باعتباره نائب السلطان في حكم مصر.

لكن عمر مكرم وزعماء الشعب قرروا بالاتفاق مع محمد علي ضرب الحصار على القلعة[3]. ويقول الجبرتي: «واجتهد السيد عمر أفندي النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد، وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد علي ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية والكل بالأسلحة والعصي والنبابيت. ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات ويسرحون أحزاباً وطوائف ومعهم المشاعل، ويطوفون بالجهات والنواحي ونواحي السور»[4]. وأصبحت المواكب الشعبية الثائرة وعلى رأسها عمر

---

(١) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٤٥.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٣٣٠.

. GOUIN: L'Egypte au dix-neuviémesiecle p 154.

(٣) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١١٤.

(٤) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٣ ص ٣٣٠.

مكرم منظراً مألوفاً في شوارع القاهرة من الأزهر إلى الأزبكية فالقلعة. حتى إن دروفتي Drovetti، قنصل فرنسا العام في مصر، قرر أن هياج الشعب في القاهرة أعاد إلى ذاكرته صورة الأيام المجيدة التي شهدتها باريس في مطلع الثورة الفرنسية[1]. أما المؤرخ الفرنسي مانجان فيقول: «إن المظاهرات الحربية التي كان يقوم بها عمر مكرم وما أبداه الشعب المصري من روح القوة والتحدي كان لها أثرها في نفوس جنود خورشيد فانكمشوا أمام هذه المظاهرات»[2].

في ليلة ٢٤ أيار ١٨٠٥، قام جنود خورشيد باشا بهجوم مفاجيء على متاريس الثوار وتبادل الفريقان إطلاق النار واستطاع الثوار أن يردوهم إلى القلعة، ويضيقوا الحصار عليها. ثم تصدوا للمحاولات المتكررة التي قام بها جنود خورشيد للتسلل إلى المدينة من أجل الحصول على ماء الشرب ومواد التموين، وأجبروهم في كل مرة على الارتداد على أعقابهم إلى القلعة[3].

اشترك جنود محمد علي مع المصريين في حصار القلعة وخصصت لكل من الفريقين مواقع معينة يرابطون فيها. ولكن هؤلاء الجنود الألبان حاربوا بفتور إلى جانب المصريين لأن غالبية جنود خورشيد باشا كانوا من جنسهم[4]، كما أن محمد علي لم يدفع لهم مرتباتهم المتأخرة فغادروا مواقعهم. فما كان من الشعب الثائر إلا أن ذهب إلى هذه المواقع واحتلها ليسد الفراغ الذي تركه الجنود الألبان بهروبهم من الميدان. وهكذا وقع على المصريين وحدهم عبء حصار القلعة منذ أوائل شهر حزيران ١٨٠٥، وكانوا يتلقون الأوامر من عمر مكرم الذي أصبح الزعيم والقائد.

ولم يكتف جنود محمد علي بالتقاعس عن القتال فحسب بل انطلقوا ينهبون الأموال من الشعب استيفاء للمرتبات التي عجز محمد علي عن دفعها لهم، وانتهزوا فرصة انصراف الجماهير إلى محاصرة القلعة وهاجموا منازل المصريين ينهبون ويسفكون الدماء. وأطلت الفتنة برأسها ووقعت مناوشات بين الشعب والجنود الألبان سقط فيها قتلى من الفريقين، فقتل من الألبان ما يقرب من ستين جندياً. وبرز أثناء تلك الفتنة

---

(١) GHORBAL: The Beginings of The Egyption Question P 227

(٢) MENGIN: Histoire d'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly T I P 164.

(٣) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٢٦.

(٤) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ١٠٤.

مصري يدعى حجاج الخضري[1] تميز بالبطولة والفدائية في ذبح الجنود الألبان الذين يعتدون على الشعب المصري. وكان حجاج الخضري شيخاً لطائفة الخضرية في القاهرة، ويقيم في حي الرميلة بالقلعة. وكون من سكان الحي فرقة من الرجال ذوي بأس شديد كانوا يأتمرون بأمره ويخضعون لتوجيهات عمر مكرم. وقد أشاد الجبرتي في مواضع كثيرة بمواقف حجاج الخضري وبطولته وشجاعته[2].

ابتهج خورشيد باشا بوقوع هذه الفتنة بين الشعب المصري وجنود محمد علي حتى تنحرف الثورة عن أهدافها النبيلة. لكن محمد علي سعى إلى عمر مكرم في منزله يرجوه مطالبة الجماهير بالكف عن الاعتداء على جنوده، وأعلن أن كل جندي يعتدي على أحد من الأهالي يضرب عنقه فوراً[3]. فتدخل عمر مكرم لحسم الفتنة تدخلاً يقوم على الحذر والتيقظ ومسالمة الجنود المسالمين وضرب الجنود المعتدين، مع الاستمرار في محاصرة القلعة ومحاربة خورشيد باشا. فأطلق المنادين في شوارع القاهرة يعلنون «حسبما رسم السيد عمر أفندي والعلماء لجميع الرعايا أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا في أماكنهم وأخطاطهم وإذا تعرض لهم عسكري بأذية قابلوه بمثلها وإلا فلا يتعرضوا له». والواقع أن عمر مكرم كان أعظم نفوذاً على سكان القاهرة من سائر الزعماء والمشايخ، وقد بلغ عدد الذين استجابوا لندائه في حمل السلاح والاشتراك في الثورة أربعين ألفاً، يطيعونه طاعة عمياء. حتى غدا عمر مكرم زعيم القاهرة كلها.

وأخذت مدافع القلعة تلقي قنابلها منذ ١٣ حزيران، صوب الجهات التي توجد بها دار السيد عمر مكرم والشيخ السادات ومحمد علي[4]. وفي أوائل شهر تموز، أشار محمد علي على السيد عمر مكرم أن يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون[5]، وتركيب هذا المدفع عند باب الوزير لضرب القلعة، لأن قذائف هذا

---

(١) لم تلق شخصية حجاج الخضري تقديراً في تاريخ مصر الوطني. وكان جزاؤها في نهاية المطاف الشنق (آب ١٨١٧) بأمر محمد علي بعد أن كان أحد أركان حكمه.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣ ص ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٧، ٣٤١، ٣٥١، ٣٥٢.

(٣) عمر عبد العزيز عمر: عمر مكرم، ص ١٠٥.

(٤) DOUIN: Mohammed Aly Pacha du Caire doc. No 37، و 41

(٥) قنطرة الليمون: إحدى القلاع التي انشأها الفرنسيون في القاهرة.

المدفع أشد فتكاً من المدافع التي كان يستعملها الثوار. وأرسل عمر مكرم رجاله الذين استخدموا الأبقار لجر المدفع الثقيل[1]، واستمروا في جره يومين، وبعد أن تم تركيبه استخدمه الثوار في ضرب القلعة التي شعرت حاميتها بشدة قذائفه وفتكه، فنزلت قوة منها تريد تدميره فهاجم المصريون أفراد القوة وقتلوا قائدها.

وهكذا تجلت في الشعب المصري إبان نضاله المسلح ضد خورشيد باشا، أروع صور الكفاح والفدائية والعزة والكرامة. وكان والفقير من العامة يبيع ملبوسه أو يستدين ويشتري به سلاحاً[2].

ظلت الحرب سجالاً بين الشعب المصري والوالي العثماني، إلى أن جاء القاهرة صالح آغا موفد السلطان العثماني[3] يوم ٩ تموز ١٨٠٥ يحمل معه مرسومين مختلفين[4] تماماً، المرسوم الأول يقضي بتثبيت خورشيد في منصبه وإخراج محمد علي من مصر، والمرسوم الثاني ينص على تعيين محمد علي والياً على مصر ونقل خورشيد باشا منها إلى منصب آخر يحدد فيما بعد. وترك للمندوب السلطاني أن يبرز أحد المرسومين على ضوء تقديره للموقف في مصر. وكان الترتيب الحافل الذي نظمه عمر مكرم لاستقبال مندوب السلطان سبباً في رجحان كفة محمد علي. وهكذا توقف القتال في القلعة مع استمرار الحصار عليها إلى أن أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ آب ١٨٠٥، ونزل منها ورحل عن البلاد. فكان آخر والٍ عثماني حكم مصر بإرادة الدولة العثمانية وأوامرها.

ويمكن القول أن روح المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي هي التي أهابت بالشعب المصري مقاومة حكم المماليك، ثم مقاومة الحكم العثماني، ثم المناداة بمحمد علي والياً على مصر.

---

(١) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ٢ ص ٣٤٦.
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٣. ص ٣٣٠ - ٣٣١.
(٣) ادوار جوان: مصر في القرن التاسع عشر، ص ٣٣١.
محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٣٤.
(٤) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٣١.

الفصل الحادي عشر

دور الحركة الوطنية في التصدي للحملة الانكليزية

(١٦ آذار / مارس ـ ١٩ أيلول / سبتمبر ١٨٠٧)

بعد ست سنوات على جلاء الحملة الفرنسية، كشف خلالها الشعب المصري عن أصالته واستعداده للنضال، اعتقدت إنكلترا أنه في مقدورها احتلال مصر كلها بستة آلاف مقاتل وقد نسيت أن الحملة الفرنسية وقوامها ستة وثلاثين ألف مقاتل قد فشلت قبلها. وهكذا حلت الهزيمة بانكلترا أمام صمود الحركة الوطنية في رشيد والحماد، ومساندة القوى الوطنية لها في القاهرة وكل مكان.

١ ـ محاولة إنكلترا إقامة حكم مملوكي في مصر:

تقلد محمد علي ولاية مصر بإرادة زعماء الشعب ولم يكن مرضياً عنه لا من الدولة العثمانية ولا من انكلترا. لكن الزعامة الشعبية كان لها أثر فعال في تثبيت دعائم حكم محمد علي وتذليل العقبات التي وضعها في طريقه العثمانيون من جهة والانكليز وصنائعهم المماليك من جهة ثانية.

وكانت انكلترا لا تريد حكماً قوياً في مصر يؤثر على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، لذلك عملت على دعم حكم مملوكي في مصر يكون تحت سيطرتها هذه المرة وإنما بمباركة من الدولة العثمانية إسمياً[1]، لتقويض حكم محمد علي بهدف المحافظة على مصالحها الاستراتيجية في كل المنطقة.

وهكذا حاول قنصل إنكلترا ميست Misset دفع المماليك للإنضمام إلى الإنكليز. إلا أن محمد الألفي زعيم المماليك والصنيعة الانكليزية مات قبل وصول الحملة بأربعين

---

(١) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٢٦٣.

يوماً، ففقدت به انكلترا حليفاً قوياً. ثم اتصل القنصل بخليفته شاهين الألفي يخبره برغبة انكلترا في تمكين المماليك من حكم مصر.

٢ ـ توتر العلاقات الانكليزية ـ العثمانية:

عملت انكلترا على وضع مصر تحت حمايتها واحتلال الاسكندرية لمنع نزول حملة فرنسية في البلاد، إذ سيطرت على عقول رجال السياسة والحرب في انكلترا أن فرنسا ستحاول لا محالة إرسال حملة عسكرية مرة أخرى إلى مصر. واعتقدت الحكومة الانكليزية أنها ارتكبت حماقة كبرى بجلاء قواتها عن مصر (آذار ١٨٠٣) تنفيذاً لصلح أميان Amiens الذي عقد بينها وبين فرنسا (٢٧ آذار ١٨٠٢)، لأنه كان يجدر بها التمسك ببقاء قواتها في مصر على غرار ما فعلت في جزيرة مالطة بهدف حماية مصالحها في المنطقة[1]. من هنا توترت العلاقات الدبلوماسية مجدداً بين الدولة العثمانية وانكلترا، وخاصة منذ سنة ١٨٠٦ عندما تحسنت العلاقات الدبلوماسية مجدداً بين الدولة العثمانية وفرنسا[2].

لذلك لجأت انكلترا إلى سياسة عرض العضلات العسكرية بعد فشل مساعيها في فك الارتباط بين الدولة العثمانية وفرنسا، وهذا يعني بنظرها خضوع الدولة العثمانية لفرنسا وابعادها عن المنطقة مجدداً أو مشاركة فرنسا لها في اقتسام تركة الدولة العثمانية، وهو ما كانت لا تريده في هذا الوقت بالذات[3]. وعلى هذا الأساس جهزت انكلترا حملة عسكرية بقيادة الجنرال فريزر.

٣ ـ مجيء الحملة الانكليزية بقيادة فريزر وسقوط الاسكندرية (١٦ ـ ١٨ آذار / مارس ١٨٠٧):

تحركت الحملة الانكليزية من جزيرة صقلية، التي اتخذتها انكلترا إحدى القواعد العسكرية في البحر المتوسط في حروبها ضد نابليون، واتجهت نحو

---

(١) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٧٩.
(٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٤٦.
(٣) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٣٨.

الاسكندرية في ١٦ آذار ١٨٠٧ بقيادة الجنرال فريزر Fraser. وضمت الحملة ستة آلاف جندي وحوالي خمس وعشرين سفينة حربية بقيادة الاميرال لويس Lewis. وفي اليوم التالي ١٧ آذار بدأ الانكليز احتلال العجمي، وهددوا الاسكندرية في ١٨ آذار وعسكروا تحت أسوارها.

وقد استغل الانكليز ضعف تحصينات الاسكندرية وحاميتها التي تضم ٣٠٠ جندي فقط، ثم ضعف القوة البحرية التي عهد إليها بالدفاع عن الساحل بأسره. كما راحوا يبثون روح التخاذل بين الأهالي ورؤسائهم ومشايخهم[1]، وخاصة طبقة التجار ذات النفوذ التي لا يعنيها سوى ضمان مصالحها التجارية وأمن أموالها وأشخاصها فحسب. واستطاع القنصل الانكليزي ميست رشوة حاكم الاسكندرية أمين آغا وكان عثمانياً ولا يميل إلى الاعتراف بسلطة محمد علي[2]، فاستسلم ومعه الحامية إلى الإنكليز كأسرى حرب.

ولم يكلف الانكليز الاستيلاء على الاسكندرية سوى ستة قتلى وثمانية جرحى، وذلك بعد الانفصال الذي شهدته الاسكندرية بين أصحاب الثروات والمصالح المالية، وبين أغلبية الشعب المستندة إلى العزة الوطنية[3].

٤ ـ تحرك قوى الحركة الوطنية بزعامة عمر مكرم في القاهرة:

لما بلغت القاهرة أنباء احتلال الاسكندرية أخذ زعماء الشعب يجتمعون ويتشاورون، وكان محمد علي في الصعيد يقاتل المماليك، فطلبوا منه العودة ومن معه من الجنود. ولم ينتظر عمر مكرم قدوم محمد علي بل تولى قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها، فطلب من الجماهير التأهب لقتال الانكليز وأمرهم بحمل السلاح. أما الضباط والجنود العثمانيين الذين كانوا في القاهرة فقد عزم أكثرهم على الفرار إلى الشام عن طريق البحر، وأسرعوا في تصفية أعمالهم المدنية التي كانوا يزاولونها وأهمها اقراض المصريين بالربا، واستبدلوا بنقودهم عملات ذهبية حتى يسهل حملها معهم فارتفعت

---

(١) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٨١.
(٢) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.
(٣) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ١٤٠.

أسعار الذهب، كما طلقوا نساءهم وباعوا أمتعتهم واشتروا الأدوات اللازمة للسفر براً[1].

حتى ان محمد علي باشا نفسه الذي كان يحارب المماليك في الصعيد انحلت عزائمه[2]، وأخذ يصالحهم عندما أدرك أن الانكليز سيحتلون مصر، وعزم على العودة متلكئاً في السير وهو يظن أن الانكليز قد يدخلون القاهرة فيتابع طريقه إلى الشام فيكون ذلك عذراً لعدم اشتراكه في التصدي للحملة[3].

وتجلى تحرك قوى الحركة الوطنية المصرية في القاهرة بزعامة عمر مكرم بالتنظيم، وبتعطيل الدراسة في الأزهر كي يتفرغ مشائخه وطلابه للجهاد[4]. وكانت دعوة عمر مكرم رجال الأزهر للمشاركة في القتال دليلاً على أن الشعب لم يكن ينظر إليهم على أنهم علماء دين فحسب بل رجال سياسة أيضاً لهم دورهم الهام في الدفاع عن البلاد. قام عمر مكرم بهذا الدور القيادي ومحمد علي لا يزال في الصعيد، يتلكأ في العودة إلى القاهرة دون أن يكون له أثر في توجيه الشعب أو استنفاره للقتال. والتصق المصريون بزعيمهم عمر مكرم واستجابوا لندائه، ومنهم من تطوع لحفر الخنادق حول القاهرة، ومنهم من تطوع بالسفر إلى رشيد. وعندما وقعت المعركة الفاصلة في الحماد كانت قوى الحركة الوطنية المصرية في كل مكان تشارك في التصدي للانكليز وهزيمتهم.

٥ ـ انتصار المصريين في رشيد (٣١ آذار/مارس ١٨٠٧):

اعتقد الانكليز بعد دخولهم الاسكندرية، أنه في مقدورهم احتلال مصر كلها. من هنا رأى «ميست» قنصل انكلترا العام في مصر أنه لا بد من احتلال رشيد والرحمانية بهدف تدعيم سلامة مركز الحملة في الاسكندرية، وأكد أن الإستيلاء عليهما سيكون بمثابة نزهة حربية للقوات الانكليزية خاصة وأن محمد علي مشغول في صراعه مع المماليك.

---

(١) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٨٣.
(٢) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٢٧١.
(٣) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٤ ص ٥٤.
(٤) SABRY: L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali P. 28.

وعلى هذا الأساس أرسل فريزر من الاسكندرية قوة تتألف من ١٤٠٠ جندي بقيادة الجنرال ويكوب Wacop للاستيلاء على رشيد في ٢٩ آذار ١٨٠٧، رغم أن تعليمات الحكومة الانكليزية لقائدها في الاسكندرية كانت تقضي بالا يحاول التوغل فيما وراءها وبألا يتدخل فيما كان يجري بين الأحزاب المختلفة في مصر[1]. وتأهب الجيش الانكليزي لدخول رشيد يوم ٣١ آذار.

قرر محافظ رشيد علي بك السلانكلي مقاومة الجيش الانكليزي معتمداً على الشعب وعلى حامية المدينة وعددها ٥٥٠ جندياً. وأمر علي بك أن تتراجع الحامية إلى داخل المدينة وأن تعتصم مع الأهالي في المنازل، وأصدر الأمر بأن لا يبادر الجنود إلى إطلاق النار إلا عند صدور الإشارة بالضرب، كما أمر بإبعاد السفن التي يستخدمها الأهالي في عبور النيل إلى الضفة الشرقية حتى لا يفكر أحد منهم أو من الجنود في الانسحاب من رشيد كما فعل جنود حامية الاسكندرية. وأدرك سكان رشيد أن نهر النيل من ورائهم والانكليز من أمامهم[2] مما شجعهم على الاستبسال في القتال.

تقدم الانكليز دون أن يجدوا أثراً للمقاومة خارج المدينة فاعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها كما فعل أمين آغا حاكم الاسكندرية، فدخلوا المدينة وفي اعتقادهم أنها سقطت نهائياً في أيديهم، وانتشروا في طرقاتها وأسواقها يرتادون أماكن يلجأون إليها ويستريحون فيها، ثم تجردوا من سلاحهم. عندها أصدر علي بك أوامره بالتصدي للانكليز بعد أن تأكد له أنهم أصبحوا في المصيدة العسكرية التي نصبت لهم، وتحولت المدينة كلها إلى بركان قذف حممه ضد الانكليز الذين امتلأت شوارع رشيد بقتلاهم، ومن بينهم قائد الحملة والكثير من أركان حربه، أما من بقي حياً فقد لاذ بالفرار[3]. وقد حاول قائد الأسطول الانكليزي الراسي في البحر عند مدخل فرع رشيد أن يقتحم النهر بزوارق صغيرة لإنقاذ القوة المهزومة، ولكن قلعة رشيد المشرفة على الموقع وثلاث سفن مزودة بالمدفعية كانت تحت تصرف حامية رشيد التحمت بالأسطول الانكليزي وصدته بعنف[4].

---

(١) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٣٩.

(٢) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ١٨٧.

(٣) ادوار جوان: مصر في القرن التاسع عشر، ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٤) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ١٤٩.

وبلغت خسائر الانكليز في هذه المعركة الوطنية حوالي ١٧٠ قتيلاً و ٢٥٠ جريحاً و ١٢٠ أسيراً سيقوا إلى القاهرة، أما خسائر المصريين فكانت ٤٠ رجلاً وحوالي ١٠٠ جريح. وكان لهذه الهزيمة وقع كبير على نفوس أهالي القاهرة فخرجوا «للفرجة» على أسرى الانكليز عند وصولهم القاهرة يوم ٥ نيسان ١٨٠٧.

٦ - انتصار المصريين في الحماد (٢١ نيسان / ابريل ١٨٠٧):

أطاحت معركة رشيد بهيبة الانكليز التي اكتسبوها في أعين المصريين، بعد انتصارهم الساحق على الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية وفي نجاحهم في إجلاء الفرنسيين عن مصر. وقد قرر فريزر في تقرير رفعه إلى وزارة الحرب أن هذه الهزيمة كانت بلا شك ضربة قاسية غير متوقعة أصابت الانكليز[1]. أما ميست قنصل انكلترا العام، فقد علق على انتصار المصريين في رشيد أن العالم بأسره ستعتريه دهشة بالغة حين يسمع أن مدينة مثل رشيد استعصت على جيش أوروبي حديث[2].

أراد الجنرال فريزر أن يمحو آثار هذه الهزيمة فأرسل حملة ثانية تتألف من ٢٥٠٠ جندي بقيادة الجنرال وليم ستيوارت William-Stewart، وكانت مجهزة بالمدافع الثقيلة فاحتلت قرية الحماد التي تقع جنوبي رشيد بين النيل وبحيرة أدكو، وكان الغرض من احتلالها تطويق رشيد ومنع وصول المدد إليها. كما احتلوا ربوة أبي مندور في ضواحي رشيد ونصبوا عليها المدافع لدك مدينة رشيد.

وكان الانكليز يعتقدون أن ضرب رشيد بالمدافع سيلقي الرعب في نفوس الحامية والأهالي ويضطرهم إلى التسليم، وقد انذروهم أكثر من مرة بأن يسلموا المدينة لكنهم رفضوا[3]. وأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف في رشيد الرسائل إلى السيد عمر مكرم في القاهرة يطلب منه امداد المدينة بالرجال والعتاد، فحض عمر مكرم الأهالي على التطوع فاستجابوا لندائه. وكذلك تطوع أهالي البحيرة والمناطق

---

(١) الوثيقة رقم ٤٠: تقرير أرسله فريزر إلى وندهام وزير الحربية الانكليزية ومؤرخ في ٦ نيسان ١٨٠٧. انظر:

DOUIN et FAUTIER: L'Angleterre et l'Egypte La Cpmpagne de 1807 P. 40-46.

(٢) المصدر نفسه، وثيقة رقم ٥١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٦٥.

المجاورة لرشيد وأقبلوا عليها للدفاع عنها، ثم أرسل محمد علي حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة وألف وخمسماية من الفرسان تحت قيادة نائبه الكتخدا طبوز أوغلي[1]. ودارت بين المصريين والانكليز معركة في الحماد يوم ٢١ نيسان ١٨٠٧ استمرت ثلاث ساعات، وانتهت بهزيمة الجيش الانكليزي الذي حاول الانسحاب ففشل وتعرض للابادة، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر وبلغت خسائر الانكليز حوالي ٤١٦ قتيلاً و ٤٠٠ أسيراً.

وهذه الهزيمة دفعت بالجنرال ستيوارت إلى رفع حصاره عن رشيد والانسحاب إلى أبي قير، حيث انتقل منها منسحباً إلى الاسكندرية عن طريق البحر.

٧ ـ جلاء الحملة الانكليزية عن مصر (١٤ ـ ١٩ أيلول /سبتمبر ١٨٠٧):

استقر الجنرال فريزر في الاسكندرية وأخذ يحصنها، في حين أخذ محمد علي يستعد للزحف على الاسكندرية لاجلاء الانكليز عنها. لكن الحكومة الانكليزية أمرت الجنرال فريزر بالانسحاب[2] بعد الهزائم المتكررة، وبعد التأكد من صعوبة الاحتفاظ بالاسكندرية دون الاستيلاء على رشيد مفتاحها الاستراتيجي، وبعد أن اتضح لها أن وجودها منعزلة في الاسكندرية وفي حالة الضعف التي هي عليه لا يفيد سوى فائدة ضئيلة في المجهود الحربي في البحر المتوسط[3].

ولم يكن ذلك عدولاً عن تحقيق أطماعها الاستعمارية في وادي النيل بل لأن الحالة السياسية في أوروبا كانت لا تمكنها من متابعة حملتها على مصر، بعد أن أصبح نابليون سيد القارة الأوروبية وأخذ يستعد لغزو انكلترا نفسها.

وقد سبق الانسحاب الانكليزي من مصر توقيع محمد علي باشا والجنرال شربروك Sherbrok والكابتن فيلوز Fellowes معاهدة للصلح في معسكر محمد علي باشا بالقرب من دمنهور في ١٤ أيلول ١٨٠٧[4]، وهي تقضي بجلاء الانكليز عن الاسكندرية مقابل استرجاع أسراهم وجرحاهم.

---

(١) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٢٧٠.
(٢) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٣٩
(٣) محمد أنيس: التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، ص ٩٤.
(٤) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، جـ١ ص ١٠٦.

وهكـذا انتهت الحملة الانكليزية بـالخيبـة والفشـل، وتم جـلاء الانكليـز عن الاسكندرية في ١٩ أيلول ١٨٠٧[1]، وانسحبت السفن الانكليزية إلى صقلية.

أدى انسحـاب الحملة الانكليـزيـة إلى تمكـين محمـد عـلي من الاستيـلاء عـلى الاسكندرية التي كانت خارجة عن حكمه قبل مجيء الحملة[2]. وفضلاً عن ذلـك فإن تخلص محمد علي من منافسيه وأعدائه بعد زوال خطر الغزو الانكليزي أصبـح مسألـة وقت فقط. وبذلك ربح الرهان في التعامل مع عامل الزمن لتوطيد سلطته في البلاد.

ونجـح محمد عـلي في إضفاء هالـة كـاذبة من المجـد حول نفسـه لدى الـدولـة العثمانية التي اعتقدت أنه هو الذي تصدى للحملة الانكليزيـة، وأنه صـاحب الفضل في إيقـاع الهزيمـة بها. ولعـل هذه الصـورة المـزيفـة[3] التي استقـرت في ذهن السـلطان العثماني هي التي أوحت إليه بأن يغدق ألواناً من التكـريم على الـوالي محمد عـلي، فأمر أن تصبح الاسكندرية تابعة لحكومة القاهرة من الناحيـة الادارية بعـد أن كانت تتبـع الباب العالي مباشرة، ثم أرسل له هدية تتكون من سيف وقفـطان وشلبخ[4]. وهكـذا يصـلي نار الحـرب قوم، هم أهـل البـلاد، وينـال فخـرهـا آخـرون وهم محمـد عـلي وأعوانه[5]. ويقـول الجبرتي «وليت العـامة شكـروا على ذلـك أو نسب إليهم فعل بـل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك»[6].

والحقيقة أن فشل الحملة كـان فصلاً هـاماً في تـاريخ الحـركة الـوطنية المصريـة كشف عن أصالة الشعب المصري وصلابته واستعداده للنضال. وكـان في حاجـة إلى زعامة واعية نزيهة، وقد توفرت له في السيد عمر مكرم، لصـد العدوان الانكليـزي على بلاده وهزيمة أقوى دول أوروبا، فلم ترهبه المدفعية الثقيلة ولا الأسلحة الفتاكة. وهذه صفحة مجد وبطولة وفدائية في تاريخ الشعب المصري الوطني، جعلـت حركـة المقاومة

---

(١) زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ص ٣١٢.

(٢) محمد أنيس: التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، ص ٩٥.

(٣) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٢٠٣.

(٤) الشلبخ هو غطاء يوضع على الرأس ومرصع بالجواهر.

(٥) محمد صبيح: كفاح شعب مصر، ص ١٦٦.

(٦) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ٤ ص ٥٥.

الـوطنية المصرية تتبلور أكثر فأكثر في الالتصـاق بالأرض التي تعيش عليها ـ الحتمية الجغـرافية بـالتعبير السياسي المعاصر ـ وإنما مدرك «الـوطن» بقي غير واضـح تمامـاً في تفكيرها، وتتمحور حول شخصية عمر مكرم ـ الزعيم الوطني بلغتنا اليوم ـ أحد أقوى العصبيات المحلية بلغة أوائل القرن التاسع عشر.

الفصل الثاني عشر

القضاء على دور الحركة الوطنية المصرية

(١٨٠٧ ـ ١٨٤٠)

كان مخطط محمد علي السياسي يرمي إلى إنشاء حكم وراثي لأسرته في مصر داخل نطاق الدولة العثمانية، أي أن يستقل في شؤون الحكم الداخلي[١]. ويتطلب هذا المخطط القضاء على القوى الثلاث التي تهدد أو تمنع تنفيذه وهي القوة السياسية المتمثلة بالحركة الوطنية بزعامة عمر مكرم، والقوة الفكرية المثقفة بزعامة الشيخ الجبرتي، والقوة العسكرية بزعامة المماليك. كما تطلب إيهام الدول الكبرى بمحاولة إقامة الدولة العربية الكبرى حتى يحقق محمد علي غايته داخل مصر.

١ ـ القضاء على الحركة الوطنية بزعامة عمر مكرم (١٨٠٧ ـ ١٨٠٩):

بالرغم من أن محمد علي كان مديناً إلى الزعامة الشعبية بوصوله إلى حكم مصر، فقد عمل على التخلص من هذه الزعامة التي تمثل قوة الحركة الوطنية المصرية، وهذا يعني الصدام المباشر مع عمر مكرم. وكان ذلك طبيعياً بسبب التناقض والاختلاف بين طبيعة كل من القوتين[٢]، فمحمد علي كان يمثل قوة الدولة أي سلطة القمع والارهاب الوحيدة في المجتمع، وقوة عمر مكرم كانت ترتكز إلى قوة الشعب المصري الذي كان يرى ضرورة الحد من سلطة العثمانيين والمماليك عليه.

من هنا كان التصادم بين القوتين، فمحمد علي يريد بناء الدولة الحديثة التي لا تعترف بالقوى المحلية، وعمر مكرم كان يريد بقاء المراقبة الشعبية على محمد علي الذي يريد أن يكون هو وحده الحُكْم والحَكَمْ في الدولة الجديدة.

---

(١) انظر بخصوص هذا الموضوع مجموعة الوثائق الفرنسية في:

Douin: Mohamed Aly, Pacha du Caire (1805-1807). doc.no 159. P. 195-199.

(٢) ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، ص ٧٩.

بدأ الخلاف بين الزعماء ومحمد علي في شهر آب ١٨٠٨، حين فرض ضريبة قدرها أربعة في المائة على كافة أنواع الحبوب والمأكولات التي تباع في الأسواق والميادين والشوارع. ثم روع الشعب المصري بسيل متدفق من الضرائب والأتاوات والقروض الاجبارية، عدا المصادرات والاستيلاء على قوافل التجارة وإجبار أصحابها على افتدائها بالمال[1]، فارتفعت أسعار السلع ارتفاعاً فاحشاً. وحدث أيضاً من قبيل المصادفات أن ألقى رجال الشرطة القبض على أحد طلبة الأزهر وهو من أقارب أحد العلماء واقتيد إلى القلعة حيث اعتقل بها. فازداد سخط الناس وتوجهوا نحو الجامع الأزهر في ٣٠ حزيران ١٨٠٩ للاحتجاج.

كما أرسلوا في طلب عمر مكرم الذي جاء معتقداً أن في استطاعته إلزام محمد علي برفع المظالم عن الشعب وحمله على التشاور معه ومع الزعماء الآخرين لما فيه مصلحة الشعب المصري. من هنا رأى زعماء الشعب المصري أن الوقوف في وجه محمد علي يحتم عليهم تجميد خلافاتهم الشخصية[2]، وهذا ما تم فعلاً. ثم انطلقوا في مجابهتهم لمحمد علي فأرسلوا له مذكرة في أول تموز ١٨٠٩، يطلبون فيها إلغاء الضرائب المستحدثة وإطلاق سراح الطالب الأزهري المعتقل. إلا أن محمد علي تجاهل المذكرة رغم أنه أطلق سراح الطالب الأزهري، وأخذ يرسم الخطط لبذر بذور التفرقة بين الزعماء بهدف خلخلة الصف الوطني المتحد لتمرير ما يريده هو لا هم من مشاريع مستقبلية لبناء الدولة الجديدة في مصر، إنها السياسة القديمة «فرق تسد».

ولاحت لمحمد علي هذه الفرصة حينما تنافس الزعماء على منصب ناظر الجامع الأزهر الذي جرت العادة منذ الحكم العثماني أن يتقلده أحد الأمراء المماليك بسبب إيراده المالي، واستمر هذا الاجراء متبعاً حتى ألغاه الفرنسيون وألحقوه بمشيخة الأزهر. لذلك عندما أراد الشيخ محمد الأمير فصله مجدداً عن مشيخة الأزهر انقسم العلماء إلى فريقين، أحدهما يناصر محمد الأمير، والآخر وقف إلى جانب شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي[3]. وازداد الانقسام حينما نصب العلماء أنفسهم واسطة بين جماهير الشعب والسلطة الحاكمة مقابل الثمن المادي الذي كانوا يتقاضونه من أفراد الشعب، وبذلك

---

(١) عبد العرير الشناوي: عمر مكرم، ص ٢٢٢.

(٢) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٢٨٢.

(٣) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٢١٥.

فقد معظم هؤلاء أهم صفات العلماء من التقوى والورع وضاعوا في الملذات الدنيوية. بالاضافة إلى أن هؤلاء العلماء كانوا ينظرون إلى عمر مكرم نظرة الحقد لأن الالتفاف الشعبي حوله ألغى الكثير من امتيازاتهم السابقة.

استغل محمد علي هذا التنافس بين العلماء فيما بينهم من جهة، وبينهم جميعاً وعمر مكرم من جهة ثانية لصالح سياسته «فرق تسد»، فشمل العلماء بالاعفاءات الضريبية على أملاكهم بهدف كسبهم إلى جانبه، وتم له ما أراد ثم استدار نحو عمر مكرم. وبذلك قضى هؤلاء العلماء على أنفسهم بأنفسهم لأنهم ضاعوا في الملذات التي قدمها لهم محمد علي كطعم سياسي، واتخذ منهم وسيلة نحو غايته الرئيسية وهي القضاء على عمر مكرم الزعيم الشعبي الحقيقي. لذلك فإن محمد علي سيعمل بعد القضاء على قوة العلماء إلى اتباع أسلوب الحوار السياسي مع عمر مكرم، فحاول استمالته، إلا أن عمر مكرم رفض التعامل مع محمد علي واتهم العلماء بتراجعهم عن القسم الذي تعاهدوا عليه بأن لا يتعاملوا مع محمد علي.

ورد عمر مكرم على محاولة محمد علي بأن اجتماعه به مرهون بإلغائه للضرائب المستحدثة، وأن معنى عدم هذا الإلغاء هو الوقوف بوجه الشعب وتفجير ثورة شعبية تخلعه من الولاية وتحيل الأمر كله إلى الباب العالي، «ولأنني كما أصعدته فإني قدير على انزاله»[1].

إلا أن حسابات عمر مكرم اعتماداً على تجربة سنة ١٨٠٥ لم تكن مطابقة على الظروف الجديدة، لأن الموقف سنة ١٨٠٩ كان يختلف عما كان عليه سنة ١٨٠٥ حينما حرك عمر مكرم والزعماء الشعب بالثورة ضد خورشيد باشا. ذلك أن حرارة تأييد عامة الشعب لعمر مكرم وللعلماء في سنة ١٨٠٩ كانت قد تلاشت إلى حد ما[2]، فهم رأوا أن لمصر سيداً واحداً كان بحكم الواقع هو محمد علي بعد أن تلاشت هيبة هؤلاء العلماء بتقربهم إليه. لذلك سيجد عمر مكرم نفسه وحيداً في المعركة ضد السلطة بعد أن سحب محمد علي كل الأوراق من يده.

ثم انفجر الخلاف بين القوتين بعد ذلك وبصورة نهائية على أثر مطالبة الحكومة

(١) Mengin- Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly T I P. 334.

(٢) محمد أنيس. التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، ص ١٠٠

العثمانية محمد علي بدفع المبالغ المتبقية لها على مصر. وقد استطاع محمد علي التهرب من دفع هذه المبالغ بحجة إفلاس خزينة الدولة المصرية نتيجة إنفاق الاعتمادات المالية الضخمة على مشاريع تعمير مصر، وتمويل الحملات العسكرية ضد المماليك. ووضع محمد علي مذكرة بذلك، فوقع عليها المشايخ[1]، ثم أرسلت إلى عمر مكرم بصفته نقيباً للاشراف للتوقيع عليها ووضع ختمه فامتنع، ولم يكتف بذلك بل راح يطعن في صحة البيانات التي تضمنتها، ثم قال للرسول: «إن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصري من الغرض والمظالم لما وسعته الدفاتر»[2].

عندئذ أرسل محمد علي في ٩ آب ١٨٠٩ أمراً بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط. وفي ١٢ آب غادر السيد عمر مكرم القاهرة إلى منفاه، واعتقد الزعماء أن الوقت قد صفا لهم بنفيه[3]. فأنعم محمد علي على الشيخ محمد المهدي في نظير اجتهاده في خيانة عمر مكرم[4]. أما الشيخ محمد السادات فتولى نقابة الأشراف بعد عزل عمر مكرم، وبلغ مأموله[5]، لأنه كان يتوق إلى هذا المنصب منذ أمد بعيد. وسمح محمد علي للشيخ محمد الدواخلي، وكان أحد المتآمرين على عمر مكرم، بالتقرب إليه وعينه نقيباً للأشراف بعد وفاة الشيخ السادات. وهذه المكافآت هي «شيء من فضلات الأرزاق»[6].

وهكذا تخلص محمد علي من قوة الحركة الوطنية المصرية المناوئة له بسياسته فرق تسد، وتمزيقه لوحدة العلماء والسياسيين بعد أن استخدم هؤلاء العلماء ضد بعضهم البعض[7]، ومن ثم ضربهم بالزعيم السياسي عمر مكرم. وبذلك تقلص نفوذ طبقة المشايخ تماماً واختفى دورها السياسي في الدولة المصرية الحديثة[8].

---

(١) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، جـ ١ ص ٦٨.
(٢) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٤ ص ٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٥.
(٤) المصدر نفسه، ص ٩٩.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.
(٦) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ٥٧.
(٧) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر ص ٨٤.
(٨) محمد أنيس: التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، ص ١٠٥.

٢ ـ التخلص من المعارضة الفكرية بزعامة الشيخ الجبرتي:

حينما تخلص محمد علي من عمر مكرم انفتحت أمامه أبواب مصر كلها، رغم بقاء قوة المماليك العسكرية، بالاضافة إلى المعارضة الفكرية المصرية التي واجهته والتي تزعمها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي. إلا أن كل هذه العقبات لم تكن حواجز حقيقية في وجه تأسيس دولته، فالشيخ الجبرتي كانت معارضته صامتة ولم يعرف عنه تلك المعارضة العلنية[1] القوية التي كانت لعمر مكرم. ورأى الجبرتي أن عهد محمد علي لن ينه المظالم أو الأتاوات، كما أنه لن يحقق التوازن المطلوب في المجتمع المصري. وكان من الدوافع التي حملت الجبرتي على النفور من حكومة محمد علي والطعن بها ما كسبه من تجارب عهد استئثار البكوات المماليك بالسلطة والحكم في مصر، وأثناء احتلال الفرنسيين لها، ثم طوال المدة التي شهدها من حكم محمد علي نفسه.

فانقلب الجبرتي على حكومة محمد علي التي خالفت، فيما اتبعته من طرق لسد حاجتها الملحة إلى المال، كل ما كان يدين به الجبرتي من مبادىء عن سياسة الحكم والدولة. كما أن محمد علي من وجهة نظر الجبرتي خالف تعاليم الدين حينما قام بتجريد الشيوخ من امتيازاتهم والاستيلاء على إيرادات الأوقاف وانفراده بالسلطة لا يسمع نصيحة ولا يشاور هؤلاء العلماء بالأمر، فتمنى الشيخ الجبرتي زوال هذا الملك الجديد[2]، الظالم المستبد. لذلك فقد رأى محمد علي بعد القضاء على مناوئيه أنه من الأصلح لحكمه الحجر على آراء الشيخ واسكاته حتى في معارضته الصامتة التي كانت على صمتها معارضة خطيرة. وأوعز إلى صهره محمد بك الدفتردار ليفتك بخليل بن الشيخ الجبرتي، فقصم هذا البلاء ظهر الجبرتي وعزف عن التسجيل والكتابة. ولهذا الأمر توقف الجبرتي عن تسجيل الوقائع في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» في ٢٧ أيلول ١٨٢١. ثم اعتكف في داره حتى توفي سنة ١٨٢٥ أو ١٨٢٦.

٣ ـ القضاء على المماليك (١٨١٠ ـ ١٨١١):

مضى محمد علي ينفذ مخططه السياسي، فبعد أن تخلص من الزعامة الشعبية كان لا بد من القضاء النهائي على المماليك الذين كانوا ما يزالون يسيطرون على الصعيد

---

(١) محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، جـ٣ ص ١٩٥.

(٢) المرجع نفسه، جـ٣ ص ١٩٢.

الغني بمحصولاته وغلاله الوفيرة، وذلك بهدف بسط سلطانه الداخلي في كل أنحاء مصر.

وكان النظام المملوكي القديم في مصر قد أصيب بهزة شديدة في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر، وكان تطوير هذا النظام مستحيلاً بعد فشله في الدفاع عن مصر أمام الحملة الفرنسية، وتسرب الشك إلى المصريين في قوة النظام الذي خضعوا له قروناً(١). وقد استفاد محمد علي من هذه الهزة في القضاء على هذا النظام من أساسه سواء من حيث قوة المماليك نفسها أو من حيث أساليبها في الحكم والإدارة والسياسة(٢). فالبكوات المماليك سوف يظلون شوكة في جانبه ومصدر خطر على باشويته إذا ظلوا رافضين الاعتراف بسلطانه وعجز عن تمكين سيطرته عليهم، وكان فرسان المماليك قوة يخشى محمد علي بأسها(٣). لذلك كان لا بد من القضاء على هذه القوة، فنظم محمد علي لهذه الغاية في سنة ١٨١٠ حملة عسكرية على المماليك وانتصر عليهم في معركتي اللاهون (تموز ١٨١٠) والبهنسا (آب ١٨١٠). وفي أول أيلول وصل محمد علي إلى القاهرة وفي صبيحة ١٤ أيلول دخل العساكر القاهرة وبصحبتهم الكثير من المماليك الذين رحب بهم محمد علي وأغدق عليهم العطايا وأسكنهم الدور في القاهرة. وهكذا انقسم المماليك فريقين: فريق خضع إلى وعود محمد علي وسكن القاهرة وعاش في نعيم ولكنه فقد السلطة، وفريق آخر على رأسه ابراهيم بك الذي لم يطمئن إلى وعود محمد علي وغدره فبقي في الصعيد الأعلى بجهات أسوان(٤)، وانضم إليه عثمان بك حسن مع نفر من أتباعهما، ولكنه لم يكن مصدر خطر كبير(٥).

وبعد أن نجح محمد علي في تجميع الغالبية العظمى من المماليك في القاهرة، لم يبق أمامه إلا تحقيق هدفه النهائي، خاصة وأن الدولة العثمانية طلبت منه تجريد حملة على الحجاز لمحاربة الوهابيين. فدعا زعماء المماليك بالإضافة إلى كبار العسكر والأعيان

---

(١) احمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٣٥
(٢) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر ،ص ٩١.
(٣) محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر،جـ٣ ص ٢٤٩.
(٤) مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ٢٩٥.
(٥) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٢٦٦.

إلى القلعة من أجل الاحتفال بتقليد ابنه طوسون القيادة العامة لحملة الحجاز[1]، وذلك يوم الجمعة أول آذار ١٨١١، وكان عددهم حوالي أربعماية وسبعون من المماليك وأتباعهم فقتلهم جميعاً[2]. ولم ينج منهم إلا إثنان أحمد بك الذي كان غائباً، وأمين بك الذي جاء متأخراً وكان في مؤخرة الصفوف فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة وفر بحصانه نحو الصحراء قاصداً سوريا.

وتطورت المذبحة من جريمة سياسية استهدفت التخلص من خصوم سياسيين إلى عملية انتقامية وحشية بعد أن أصبح هؤلاء الخصوم جثثاً هامدة، فصدرت الأوامر بسلخ رؤوس عظماء المماليك[3]. كما أعقب هذه المذبحة نزول الجنود الألبان إلى المدينة حيث اقتحموا بيوت المماليك يقتلون من فيها من الاتباع وينهبون أثاثها ويغتصبون نساءها. وسقط نحو الألف في هذه المذبحة في القاهرة وبقية أنحاء مصر.

وبذلك يكون محمد علي قد أمن لنفسه الانفراد بحكم مصر. فقد أدخلت مذبحة المماليك الرعب والفزع في قلوب المصريين الذين تطلعوا إلى مراقبة الحكام عندما دبت فيهم روح الحياة الديموقراطية، فقضت مذبحة القلعة على هذه الروح[4]. ولم يبد الشعب بسبب ذلك أي معارضة[5] لمحمد علي طوال المدة التي قضاها في الحكم.

---

(١) رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٢٠٢.
مكي شبيكة: تاريخ شعوب وادي النيل، ص ١٩٥.

(٢) عبد الرحمن الرافعي. عصر محمد علي، ص ١١٥.
جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث، جـ ٢ ص ١٥٨.

(٣) عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٢٦٦.

(٤) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٥) قام أهل القاهرة في (٢٩ آذار ١٨٢٢) بانتفاضة على حكم محمد علي عندما فرض عليهم ضرائب جديدة على العقارات المبنية وكان عمر مكرم قد عاد من منفاه إلى القاهرة (٩ كانون الثاني ١٨١٩) وانطلقت شرارة الانتفاضة من حي باب الشعرية ضد اللجنة التي أرسلها محمد علي لتقدير الضرائب لكن محمد علي أرسل القوات المسلحة إلى منطقة الأزهر فسيطرت على الموقف وهنا برزت الهوة بين الشعب وعلماء الأزهر الذين وقفوا بجانب محمد علي. واعتقد محمد علي أن للسيد عمر مكرم يداً في هذه الانتفاضة فأمر بنفيه من جديد إلى طنطا لكنه توفي في نفس السنة ١٨٢٢. انظر بخصوص انتفاضة (٢٩ آذار ١٨٢٢):
عبد العزيز الشناوي: عمر مكرم، ص ٢٨٤ - ٢٨٨.
عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ١٠٣ - ١٠٤.

٤ ـ إلغاء دور الحركة الوطنية المصرية في إقامة الدولة العربية الكبرى (١٨١١ ـ ١٨٤٠):

كانت الحركة الوطنية المصرية تتفتح ببطء نحو محيطها العربي، ولو لم يخنقها محمد علي وهي في عز ذروتها لكانت أهم الدعائم التي قامت عليها الدولة الحديثة في مصر لتساهم في إقامة الدولة العربية الكبرى التي يحلم بها كل عربي.

ويبدو أن محمد علي قد أدرك جيداً مسار الشعب المصري نحو وطنيته وقوميته، فصادر هذا المسار لصالحه عن طريق القوة والإكراه. فعندما بدأ تأسيس الدولة الحديثة التي تدعمها قوة الجيش والحكومة المركزية، وحينما أراد إقامة الدولة العربية الكبرى، كان الشعب المصري «والوطني العربي» هو الأداة، وأما القيادة فكانت للخليط من الأتراك والمماليك والألبان والشركس وغيرهم. وهكذا وجد الشعب المصري في الحكومة وأساسها الجيش، أداة القمع والاستغلال، فأخذ يسعى للتخلص من قيودها.

وعلى هذا الأساس انطلق محمد علي في تأسيس دولته الحديثة القائمة على نهضة داخلية شاملة تناولت جميع مرافق البلاد الادارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإنشاء قوة عسكرية لحماية هذه الدولة وتحقيق استقلالها[1].

وقام التنظيم الاداري على مبدأ التخصص، وذلك بأن يختص كل ديوان أو إدارة بمرفق من مرافق البلاد[2].

وكان الانقلاب الاجتماعي والاقتصادي وقوامه إلغاء نظام الالتزام الذي بموجبه أصبح محمد علي الملتزم الوحيد في مصر، وأصبح الفلاحون جميعاً فلاحين الباشا[3]، مما مكن الحكومة من السيطرة على أهم موارد الثروة والتغلغل في كل أنحاء البلاد[4].

---

(١) محمد صبري: تاريخ مصر الحديث، ص ٦٠.

(٢) عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ٦٠٦.

أحمد عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٣٧.

عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ١٤٠.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، جـ ٤ ص ٢٠٧.

(٤) محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، ص ١٠٤.

كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، جـ ٢ ص ٤٢٣.

وقد دعم محمد علي البنية الاقتصادية لدولته الجديدة بثورة العلم الجديدة عن طريق إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، وإنشاء المدارس والمستشفيات والصحف والمطابع[1].

كل ذلك ليضعه في خدمة الصناعة العسكرية والصناعات الكبرى بهدف تنمية القوة العسكرية، وقد استعان بالخبراء الفرنسيين، كما أنشأ الجريدة العسكرية[2]. فالقوة العسكرية كانت الأداة لتنفيذ سياسة محمد علي الخارجية، والتي كانت توحي شكلاً إلى إقامة دولة عربية كبرى، بينما كانت في الحقيقة تهدف لإقامة حكم مستقل له في داخل مصر. لذلك اصطدم محمد علي بالدولة العثمانية حينما رفضت الاعتراف بالكيان السياسي المصري الجديد على أنه قوة لها وليس عبئاً عليها، خاصة عندما تحرك محمد علي في الجزيرة العربية والسودان وسوريا[3].

وتعتبر حروب محمد علي في الجزيرة العربية فاتحة لتنفيذ سياسته الخارجية. فقد حاولت الدولة العثمانية الاستنجاد بقوة محمد علي للقضاء على الحركة الوهابية، التي هددتها في أقطار العالم العربي المحيط بشبه الجزيرة العربية مباشرة[4]، وقد جرد محمد علي ثلاث حملات (١٨١١ ـ ١٨١٩) للقضاء على الحركة الوهابية. وهنا بدأ صدامه بالدولة العثمانية وانكلترا التي كانت تسعى للسيطرة على الخليج العربي بهدف الحفاظ على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة، وليبدأ معها النظر إلى محمد علي من القوتين العثمانية والانكليزية على أساس أنه عبء عليهما وليس نعمة.

وكانت خطوته الثانية تحقيق وحدة وادي النيل بضم السودان سنة ١٨٢٣،

---

(١) جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية عصر محمد علي، ص ٨، ٩.
محمود زايد: من أحمد عرابي إلى جمال عبد الناصر، ص ١٣.
ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، ص ١٦٠.
ساطع الحصري: آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، ص ٨٨.
(٢) محمد السروجي: الجيش المصري في القرن التاسع عشر، ص ٢٤١، ٢٥٣.
(٣) امين سعيد: تاريخ مصر السياسي، ص ٥٥.
(٤) اسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، جـ ١ ص ٢٦.
عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص ١٢٧ ـ ١٣١.

وتحملت مصر في إدخال الحضارة الحديثة إلى السودان تضحيات لم تتحملها دولة أخرى في افريقيا[1].

ثم كانت خطوته الثالثة التي أراد بها مد حدود مصر الشمالية إلى شمال سوريا بهدف تأمين مصر من أي غزو خارجي[2]، وليس لتأسيس دولة عربية كبرى. لأن محمد علي نظر إلى جبال سوريا ولبنان على أنها خط الدفاع الأول عن مصر في وجه أي هجوم عثماني محتمل، مما يعني أن حدود مصر الاستراتيجية ليست في السويس بل في جبال طوروس. وعلى هذا الأساس أرسل حملة قوامها ٣٠ ألف جندي بقيادة ابنه ابراهيم باشا الذي سار من مصر في ٢٩ تشرين الأول ١٨٣١ واحتل غزة ويافا وحيفا، ثم حاصر عكا حيث سانده الأمير بشير الشهابي الثاني.

وهكذا اصطدم محمد علي مجدداً بانكلترا صاحبة نظرية التكامل السياسي بالنسبة للدولة العثمانية التي خيل للعالم أن الضربة القاضية لتفكيكها أصبحت وشيكة الوقوع[3]، خاصة بعد سقوط عكا في ٢٧ أيار ١٨٣٢ والتي عجز عنها نابليون بونابرت، وبعد انتصار المصريين على العثمانيين في معركة قونية (كانون الأول ١٨٣٢)، وتوقيع العثمانيين اتفاقية كوتاهية للصلح (نيسان ١٨٣٣)[4] والتي سيطر بموجبها محمد علي كل سوريا. وبذلك تداخلت هذه الخطوة بوضع الأمير بشير الشهابي الثاني القلق في جبل لبنان، لتصبح فيما بعد عنصراً رئيساً في تفجير الصراع الدولي في المنطقة، ضمن إطار المسألة الشرقية[5].

وقد ظهر هذا الصراع واضحاً من خلال الموقفين الفرنسي والانكليزي، بالنسبة لحملة محمد علي في سوريا، والذي لخصه «مترنيخ» مستشار النمسا بقوله: «إن انكلترا ترغب في الحد من قوة الباشا وفرنسا تهدف إلى المحافظة على هذه القوة إن لم نقل تنميتها»[6].

---

(١) زاهر رياض: استعمار القارة الافريقية واستقلالها، ص ١١.

(٢) عبد العزيز نوار: تاريخ العرب المعاصر، ص ١٣٢.

(٣) اسد رستم: ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، ص ١١٩.

(٤) اسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، جـ ١ ص ٩٤.

(٥) احمد طربين: أزمة الحكم في لبنان، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٦) TEMPERLEY: England and the Near East P. 63-64.

وقررت انكلترا تجريد مصر من أسطولها البحري[1]. وحاصر الأسطول الانكليزي بقيادة الأميرال شارلس نابيير سواحل مصر والشام، وأنذر الجيش المصري بإخلاء بيروت وعكا. وأمام التحالف العثماني - الأوروبي، جاء الأسطول الدولي بقيادة الأميرال الانكليزي روبرت ستوتفورد، والأميرال النمسوي بانديارا، وكان يتألف من ثلاث وعشرين سفينة حربية إنكليزية وخمس عثمانية وثلاث نمسوية، تحمل بين عشرة وخمسة عشر ألف جندي عثماني وألفي جندي أوروبي[2]. ونزلت قوات الحلفاء في ميناء جونية شمال بيروت، ووزع السلاح على الفلاحين في الجبل بعد تحريضهم على الثورة ضد المصريين[3]. وفي ١٠ و١١ أيلول ١٨٤٠ أخذت مدفعية الأسطول تقصف بيروت والمحجر الصحي في الكرنتينا، مما أدى إلى قتل النساء والأطفال والشيوخ أكثر مما قتل من الجنود[4]. كما تهدم سور بيروت تهدماً يكاد يكون كاملاً، وأحرق الأسطول المصري[5].

وأسفر هذا الصراع الدولي الذي تزعمته انكلترا ضد محمد علي، عن جلاء القوات المصرية عن سوريا وعودة السلطة العثمانية إلى هذه المنطقة، وتأكيد ملكية محمد علي في مصر له ولأسرته من بعده[6] بموجب فرمانات ١٣ شباط ١٨٤١[7].

هذا ويرجع الفشل الرئيسي في عدم نجاح محمد علي في سياسته الخارجية وخاصة في سوريا، أنه جعل مستقبل مصر رهناً بشخصه وبشخص ابنه ابراهيم. لذلك حينما زال هذان الرجلان عن المسرح السياسي بتحجيمهما في سوريا، تحجما في مصر ولم يبق لهما من حلم الامبراطورية التي أرادا تأسيسها شيئاً[8]. كما أن محمد علي

---

(١) عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ١٥٤.
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٥.
(٣) HUNTER: Expedition to Syria P. 78.
محمد كرد علي: خطط الشام جـ٣ ص ٦٦.
(٤) عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ١٥٥.
(٥) المرجع نفسه ص ١٥٦.
(٦) انظر:
Hunter: Expedition to Syria, P. 278.
(٧) انظر نص الفرمان في:
اسد رستم: بشير بين السلطان والعزيز، جـ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
(٨) LAMARTINE: Voyage en Orient Vol. 1, P 425.

وابنه ابراهيم لم يكونا عربيين رغم ما قيل عن فكرتها في اقامة الدولة العربية الكبرى[1].

ويعتقد أن حديث محمد علي عن الخلافة العربية كان ينقص كلما اقتربت قواته من الأستانة مؤكداً لقناصل الدول الأوروبية بأنه لا يفكر أبداً بالاستقلال عن السلطنة العثمانية[2].

وعلى أي حال فإن تلويح محمد علي بإقامة دولة عربية لم يكن إلا وسيلة للوصول إلى هدفه الأساسي وهو تحقيق الحكم الوراثي له ولأسرته من بعده في مصر. ومحمد علي لم يكن وطنياً مصرياً بل عثمانياً[3]، ولم تكن سياسته الخارجية صراعاً وطنياً من أجل وطنية وعروبة مصر بل كانت بهدف ضمان جعل مصر له ولأسرته من بعده، مقابل دفع الجزية السنوية للسلطان اعترافاً منه بالسيادة العثمانية على مصر.

وهذا ما تؤكده أكثر المظان التاريخية التي بحثت في عوامل النزاع بين محمد علي والسلطنة العثمانية التي لا تشير إليه كنزاع قومي بين محمد علي والسلطان وإنما ترده بأنه كان نزاعاً للمحافظة على ثروته ومنصبه ومقامه وحياته[4]. وأصحاب هذه المظان أكثريتهم من الأوروبيين الذين استخدمهم محمد علي في مناصب حكومته المختلفة ومن ممثلي الدول الأوروبية في مصر، وكل المؤرخين الوطنيين تقريباً.

ومما له شأن تاريخي في هذا البحث الأوامر التي أصدرها محمد علي إلى رجال الشرطة في القاهرة والاسكندرية بين سنتي ١٨٣١ و١٨٣٣، وكان الحصار لا يزال مضروباً على عكا، حينما دبرت فتنة ضد محمد علي في القاهرة فبلغه أمرها قبل حدوثها. وأصدر أوامر مشددة إلى رجال شرطته للقبض على كل المشاغبين وسجنهم والفتك ببعض الذين حامت حولهم الشبهات بهدف القضاء على كل ميل للثورة عند سكان القاهرة[5]. ولم يؤذن لأحد من المصريين في الاسكندرية أن يتحدث عن أحوال

---

(١) جورج انطونيوس: يقظة العرب، ص ٨٥ - ٨٦.
ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، ص ١٠١.

(٢) صبحي وحيدة: في أصول المسألة المصرية، ص ١٤٥.

(٣) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ مصر الحديث، ص ١٤٨.

(٤) أسد رستم: آراء وأبحاث، ص ١٤٤.

(٥) ST.JOHN: Egypt and Mohammed Ali Vol. II P. 492.

حملته إلى سوريا[1]. ولنا في موقف المصريين إزاء الخدمة العسكرية وقتها شاهداً آخر على بطلان أن نزاع محمد علي ضد السلطنة كان قومياً، فكثير من الشباب المصري ذروا الزرنيخ في عيونهم حتى يفقدوا بصرهم تهرباً من الخدمة العسكرية الاجبارية، ومنهم من قطع سبابة اليد اليمنى أو قلع أسنانه أو بتر ذراعه، ومئات من الفلاحين هربوا إلى سوريا فراراً من الجندية[2]. فلو أن الوطنيين المصريين كانوا يحاربون في سبيل حريتهم واستقلالهم القومي في سنتي ١٨٣١ و١٨٣٢ لكانوا تصرفوا غير هذا التصرف حين مست حاجة البلاد إليهم[3].

وبالنسبة لابراهيم باشا أيضاً فإن صراعه مع السلطنة لم يكن قومياً، بل كان ينفذ أوامر والده. وليس في الامكان البت في أمر علاقة ابراهيم باشا بالقومية العربية، لأنه ليس لدينا سوى شاهد واحد على ذلك، والعلم الصحيح يمنع الإثبات والتصديق في الأمور التاريخية التي ليس لها سوى راو واحد مهما عظمت مكانته، خاصة وأن هذا الشاهد هو البارون دي بوا[4] معتمد فرنسا السياسي تجاه محمد علي، وفرنسا كانت إلى جانب محمد علي في سياسته التوسعية.

وهكذا يمكن القول بأن محمد علي لم يكن إلا عثمانياً، وعلى هذا الأساس تصرف في معاملته للشعب المصري وفي تعامله مع الدول الأوروبية، لأنه لم يكن يثق إلا باللغة التركية ولا يتكلم غيرها[5]، ولم يكن يسمح للمصريين بالدخول إلى مدرسة

---

(١) أسد رستم: آراء وأبحاث، ص ١٧٠.

(٢) ST.JOHN: Egypt and Mohammed Ali Vol. II P 189-192.

(٣) أسد رستم: آراء وأبحاث، ص ١٧١.

(٤) ينسب إلى البارون دي بوا أنه قال: يريد ابراهيم باشا أن يحيي الأمة العربية وأن يعطي العرب حقهم في حكومة البلاد وفي الجيش أيضاً. وقد ذكر عساكره في أثناء حربه الأخيرة في سوريا بماضي الأمة العربية المجيد، وهو يقول أنه يجب أن تكون كل البلدان العربية تحت حكم والده، ولذا فإنه سيسيطر على بغداد والعراق العربي. وقد سأله أحد جنوده مرة عن السبب الذي يجعله يطعن في الأتراك العثمانيين وهو منهم فأجابه ابراهيم: أنا لست تركياً قدمت مصر طفلاً وقد غيرتني شمسها منذ ذلك الحين فأصبحت الآن عربياً مثلك.

انظر:

DOUIN: La Mission du Baron de Bois. P 248 - 249.

(٥) Rêvue des deux Mondes 1840 Vol 3 P. 642.

الضباط ولا أن يترقوا في مسائل الجندية[1]. وبقراءة أوضح فإن هم محمد علي من تطلعه إلى سوريا كان الحفاظ على ملكه في مصر مستقلاً ووراثياً له ولأسرته من بعده. وهذا ما حصل عليه في تسوية لندن سنة ١٨٤٠ والفرمانات السلطانية الملحقة بها سنة ١٨٤١.

ولعل السؤال الذي يطرح هنا: هل المؤرخون هم الذين فلسفوا تحرك محمد علي، أم أن أعمال محمد علي نفسه كانت تدل على انعزاليته وإقليميته ومصريته المصرية؟

لقد اعتمد علي في حكمه على «عصبية ليست بعربية»، اعتمد على الأتراك والمماليك والألبان والشركس والأرمن والأقباط وبعض الأوروبيين ومن قليل من أولاد العرب[2]. وحاول أن يجعل من نتاج هذا الخليط الكيميائي «عصبية يعتمد عليها» في حكمه لمصر، ولعله أدرك أنه لا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لها أقرت بالإذعان والاتباع. وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: «إن الرئاسة لا تكون إلا بالغلب والغلب إنما يكون بالعصبية»[3].

ولهذا الأمر سيبتعد محمد علي عن مصر العربية لأن عصبيته لم تكن عربية، ومن هنا السبب الرئيسي في مأساة عهده، فهو لم يؤمن بدور الحركة الشعبية المصرية لأنه منفصل عنها انتماء عرقياً وقومياً مع أنها مهدت له حكم مصر، واعتبرها نقطة وثوب إلى مطامعه[4].

وكان رجال الحكومة إما من الأرناؤوط أو الجراكسة أو الأرمن. . . وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون وإنما يبتغون مرضاة محمد علي صاحب الاقطاع الكبير[5]. وهكذا لم يجعل للمصريين، سواء في القاهرة أو أمهات الأقاليم، رأياً في هذه الحكومة.

---

(١) اسد رستم: آراء وأبحاث، ص ١٧٠.
(٢) محمد فؤاد شكري: بناء دولة مصر محمد علي، ص ٢٢.
(٣) ابن خلدون: المقدمة، الفصل ١٢، ص ١٣٢.
(٤) الميثاق، ص ٣١.
(٥) مذكرات الامام محمد عبده، ص ٤٠.

هذا وقد كان محمد علي يرفض سماع تاريخ العرب[1]، ويفضل عليه سماع قصص الاسكندر ونوادر نابليون، ولا يطرب إلا للأغاني الجركسية والألبانية ويمنع الغناء العربي في قصوره.

والواقع أن الجيش الذي أنشأه محمد علي لم يكن جيشاً وطنياً، فبعد أن قضى في مذبحة القلعة سنة ١٨١١ وفي حروبه في الصعيد سنة ١٨١٢ على أكثر من ألف من رؤساء المماليك من مجموع اثني عشر ألفاً، التحق الباقي في خدمته. ثم جمع من أولادهم الذين لم تبلغ سنهم الثانية عشرة صاروا بعد ذلك ضباط الجيش النظامي الذي انشأه سنة ١٨١٥[2]. وظل «هؤلاء الضباط يحاولون إحياء دولة للمماليك على حساب العنصر الوطني»[3].

وقد فشل محمد علي في بناء قوة عسكرية وطنية قوية، رغم أنه اعتمد التجنيد الاجباري والغى امتيازات العصبيات المحلية وجمعها في مؤسسة عسكرية واحدة. إلا أن المصريين كانوا في هذه المؤسسة «الأداة»، فلم يبلغوا الرتب العالية فيها، ولم يتعلموا حب التجنيد والرغبة في الفتح والغلب، ولم يشعر المصري بعظمة أسطوله وقوة جيشه، بل كان يفكر بالهرب من الجيش، بعد أن كان يحارب الفرنسيين والانكليز ولا يبالي بالموت[4]. فهل اختلف الأمر كثيراً في عهد محمد علي عن المماليك؟[5].

والحقيقة أن تأسيس الجيش الوطني تحت إمرة الضباط المصريين الوطنيين كان كفيلاً في الوقوف أمام المطامع الاستعمارية الأوروبية.

وهكذا ساق محمد علي مصر وراءه إلى مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد متجاهلة مصالح الشعب[6]، حتى كانت تسوية (١٨٤٠ - ١٨٤١) التي خدمت مصالح

---

(١) ذوقان قرقوط: تطور الفكرة العربية في مصر، ص ١٢٤.
(٢) أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص ٢٢ و٢٣.
(٣) أنيس صايغ: الفكرة العربية في مصر، ص ١٧.
(٤) مذكرات الامام محمد عبده، ص ٤٢، ٤٣.
(٥) أنيس صايغ: الفكرة العربية في مصر، ص ٣٨.
(٦) الميثاق، ص ٣١.

الدول الكبرى قبل أن تخدم مصالح مصر أو الدولة العثمانية ، فقد أضعفت التسوية مصر بتحديد قوتها العسكرية والاقتصادية وفرضت عليها سياسة الانكماش والتوقع وأخرجتها من الشرق العربي . وهذا يعني أن مصر العربية خسرت المعركة ، وليس محمد علي ، وذلك نتيجة تقييد الحركة الوطنية المصرية في الدولة الحديثة التي فقدت أهم ركن من أركانها وهو الشعب ، مما أفقدها استقلاليتها الحقيقية ، حتى سهل دخول المحتل الانكليزي سنة ١٨٨٢ .

الخاتمة

وهكذا يمكن القول أن المقاومة المصرية ضد الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) كانت أساساً لظهور القيادة الشعبية المصرية الجديدة (١٨٠١ ـ ١٨٠٧) التي تصدت للحملة الانكليزية (١٨٠٧). وكانت هذه المقاومة عملاً سياسياً وعسكرياً استجاب به الشعب المصري لتحدي القوى الدخيلة له، وكانت استجابته تهدف إلى رفع الظلم الاستعماري الفرنسي والاستغلالي العثماني والإداري المملوكي. وبذلك تحدى الشعب المصري كل القوى التي تحدته، المماليك والدولة العثمانية والقوى الأجنبية وخاصة فرنسا وإنكلترا، مما ساهم في زرع بذرة الوطنية السائرة ببطء نحو القومية.

صحيح أن الحركة الوطنية المصرية في بدايتها لم تكن جماعة واحدة يحركها قرار سياسي وعسكري واحد صادر عن قيادة واحدة، بقدر ما كانت مجموعة من التكتلات تفرض كل منها على أعضائها واجب الولاء المباشر لها، وكانت هذه التكتلات إما ريفية أو في المدن. إلا أن الولاء الديني للعقيدة الاسلامية كان القاسم المشترك فيما بينها فوحدها في اتجاه الهدف المشترك وهو التصدي للغرب الأوروبي المسيحي خاصة، وبذلك ملكت هذه المقاومة وحدة الهدف وإن غابت عنها بعض الشيء وحدة الصف، بمعنى أنها كانت خليطاً من العلماء والزعامات المحلية في المدن والأرياف.

فالعقيدة الاسلامية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت من أقوى العوامل الاجتماعية في الشرق كله ولم يكن بعد الاحساس القومي قد تبلور في النفوس العربية ومنها المصرية. لذلك نستطيع القول أن المقاومة المصرية للاحتلال الفرنسي كانت أيضاً تدور في دائرة المقاومة الإسلامية للغرب المسيحي،

وعلى هذا الأساس اندفعت هذه الحركة محكومة بشعورها الوطني وبفروق المصلحة الدينية في ردها للفرنسيين الذين مثلوا في نظر المصريين عدواناً مسيحياً صارخاً على التراث الإسلامي، حتى أن الجبرتي بالرغم من رزانته وصفهم بـ «الكلاب الكفرة».

ومهما يكن من أمر المقاومة المصرية ما بين (١٧٩٨ - ١٨٠٧)، فإنه لن ينقص من كفاحها ونضالها أنها ارتكزت إلى عقيدتها الإسلامية، فاستجابت بها ومعها لتحدي قوى الظلام الداخلي والخارجي، وحققت بذلك هدفها الوطني في تلك الفترة. دافعت عن الاسلام فحفظت التراث الإسلامي من الضياع في مصر والعالم الإسلامي، وفيه العربي. ودافعت بقوة الاسلام عن مصر فحفظت لمصر دورها الحضاري المميز في العالم الاسلامي، وفيه العالم العربي.

ولم تكن الأقطار العربية الأخرى غائبة عن نضال الشعب المصري، فموقع مصر لا ينفصل عما يحيط به من العالم العربي. لذلك كانت المقاومة تزداد كلما تقدمت الحملة الفرنسية باتجاه الجنوب واقتربت من البحر الأحمر والأماكن المقدسة. ومنذ نزول القوات الفرنسية في مصر، اتجه إلى سوريا الذين رفضوا التعاون مع الفرنسيين ولجأوا إليها وجعلوها مركزاً لنشاطهم ومقاومتهم. وكان الفرنسيون كلما اشتدت المقاومة من حولهم أو فوجئوا بهجوم يظنون أنه مدد من سوريا. وعندما اتجهت الحملة الفرنسية إلى سوريا توحد مصير البلدين، ووجدت أمامها المجاهدين المصريين وعلى رأسهم عمر مكرم جنباً إلى جنب مع المجاهدين السوريين فوق أرض فلسطين وإقليم بحيرة طبرية في الأردن، حيث دارت المعارك ضد الفرنسيين مع الإشارة إلى أن صمود عكا أنقذ المدن السورية حتى حلب من مصير مروع كمصير يافا، أو المناطق المصرية التي دمرها الاحتلال الفرنسي، وأذاق نابليون أول هزيمة عسكرية.

ولعل من أوضح آيات الوحدة العربية مشاركة أبناء الحجاز للصعيد في كفاحه ضد الفرنسيين، وقد جاؤوا عبر البحر الأحمر بأسلحتهم وقاتلوا إلى جانب المصريين في معارك العزة والكرامة. وكانت لهم وقائع مشهورة مع الفرنسيين.

كما ظهر أحد المغاربة في البحيرة أطلق عليه المهدي، وقام بحركة ثورية ضد الاحتلال. وكانت حركته أعنف أنواع المقاومة التي لقيها الفرنسيون في مصر. وكان

المغاربة يشكّلون عدداً كبيراً في القاهرة، وظلُّوا يلتزمون جانب السيد عمر مكرم في النضال والدفاع عن قضية الشعب ويبذل في سبيلها الموسرون منهم.

وإذا كان الأزهر معقل الكفاح والصمود في وجه الاحتلال الفرنسي، فإنه قد أصبح منذ زمن طويل يمثل البلاد العربية بمن يضمهم في أروقته من المغاربة والسوريين والعراقيين والحجازيين واليمنيين الذين شاركوه مصير نضاله. فلا عجب أن تأخذ الغيرة القومية على الأزهر لدخول الفرنسيين إليه بخيولهم وانتهاكهم لحرمته شاباً من حلب هو سليمان الحلبي، فيغتال كبيرهم الجنرال كليبر. فما كان العرب في ذلك الوقت ولا في أي وقت سبقه يجد أحدهم نفسه غريباً في أي بلد من البلاد، ولم تكن هناك حدود تفصل بين الناس، هذه الحدود التي ابتدعها الاستعمار وهو يقسم الأرض العربية.

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن ننكر الدور الذي لعبته الحملة الفرنسية، من غير قصد ولمصالحها الخاصة، في إيقاظ المصريين وتنبيههم إلى حقهم في مزاولة السلطة في بلادهم، وذلك بعد إنشاء ديوان القاهرة (أول وزارة مصرية) الذي يعتبر الواجهة المصرية للحكم الفرنسي، ومع ذلك كان بمثابة تجربة في ديموقراطية الحكم المحلي لم تكن معروفة في عهدي المماليك والأتراك العثمانيين. فقد تعرضت مصر لتجربة هامة خلال السنوات الثلاث من الاحتكاك مع حملة نابليون التي تمثل الثورة البورجوازية الفرنسية، ومع شعارات الحرية والإخاء والمساواة التي أقيمت لها الزينات وأقواس النصر في القاهرة، ومع ما كان يفعله العلماء الفرنسيون الذين رافقوا الحملة من طباعة ومسح وتخطيط وبحوث علمية وثقافية واقتصادية واجتماعية. وهذا ما ساعد بأن تبقى مصر في طليعة الأقطار العربية الساعية للتخلص من سيطرة الأتراك العثمانيين، بعد أن شعرت بظهور القوى السياسية الجديدة وغير الاقطاعية متمثلة بالقيادة الشعبية التي تسلّمها عمر مكرم وغيره من العلماء.

وإذا كانت الحملة الفرنسية أول محاولة أوروبية كبرى لاستعمار الأقطار العربية منذ طرد الصليبيين منها، فإنها أنهت العزلة التي عاشها الشرق العربي تحت حكم الأتراك العثمانيين حوالي ثلاثة قرون، وأصبحت أراضيه مجال تنافس استعماري بين الدول الأوروبية الكبرى. لذلك يمكن اعتبار هذه الحملة الفرنسية بمثابة الهزّة التي

قوّضت أسس النظام المملوكي ـ العثماني بعد أن أثارت نوعاً من شعور شعبي ووطني إلى حدٍّ ما بضرورة التغيير.

وهذا كله يصب في مجرى القومية المنسابة في هدوء تام وسط ما شهدته مصر من نضال لم تعرفه منذ أيام صلاح الدين الأيوبي. ومن خلال هذا الانسياب بدأت مواجهة القوى الشعبية والقوى البورجوازية المصرية الجديدة المتمثلة بالعنصر العربي، ضد القوى التقليدية الإقطاعية المتمثلة بعنصر غير عربي من المماليك والأتراك العثمانيين، كما تصدّت للغزوة الانكليزية، وأنزلت بها الهزيمة سنة ١٨٠٧.

وبالرغم من نجاح هذه القوى الجديدة في أولى نضالاتها، فإنها لم تجرؤ على المطالبة بأن يتولّى أحد أبنائها المصريين العرب حكم مصر، وذلك خشية الصدام مع السلطان العثماني. وهذا يعني أن الأوان لم يحن للتخلّص من الحكم التركي العثماني، لذلك اكتفت هذه القوى بتغيير الوالي العثماني بوالٍ آخر عثماني هو محمد علي. ومع ذلك استمرت القومية العربية تنساب بهدوء لتنفجر فيما بعد.

ولا بد من الإشارة هنا إلى موضوع غاية في الأهمية، فربما البعض ما زال يعتقد أن أصحاب النصر الحقيقي على قوى الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) كانوا المماليك، وعلى الغزوة الانكليزية سنة ١٨٠٧ كان محمد علي.

ولكن إذا اعترفنا للمماليك ببعض ما لهم من حق، وكان بعضهم من أبناء مصر، وهو حق القيادة السياسية والعسكرية في طرد الاحتلال الفرنسي، فإن هذا الحق يتراجع أمام صاحب الحق الأساسي والرئيسي وهو الشعب المصري، الذي به دافع المماليك عن بعض مصر ولولاه لضاعت كل مصر. مما يعني أن المماليك قاتلوا ثم هادنوا دفاعاً عن مصالحهم وليس مساندة للشعب المصري أو دفاعاً عنه.

أما محمد علي فقد احتوى نضال وكفاح شعب مصر كما احتوت البورجوازية في فرنسا نضال وكفاح شعب فرنسا في ثورته الكبرى سنة ١٧٨٩، إلا أن الفارق أن البورجوازية كانت وطنية في فرنسا، ومحمد علي كان عثمانياً أجنبياً عن مصر.

ومن هذا المنطلق فهم محمد علي اللعبة السياسية داخل مصر وخارجها أي في محيطها العربي. لذلك تسلّط بمهارة على القوى الشعبية والبورجوازية المصرية الجديدة، واستغلّ هذا العنصر العربي في سبيل تحقيق مآربه السياسية بعد أن أوهم الجميع

وكأنه صاحب الانتصار. وهكذا وقعت المواجهة بينه وبين القوى المحلية الجديدة التي كان يحرِّكها إلى حدٍّ كبير السيد عمر مكرم، والذي كاد أن يصبح محور الحركة الوطنية المصرية كلها، إلا أن الظروف الداخلية والخارجية كانت أكبر منه، بالإضافة إلى فشله في اختيار الوقت الملائم في صراعه الوطني مع محمد علي. فالظرف المحلي والظرف الدولي كانا في اتجاه وعمر مكرم كان في اتجاه آخر، كما أن حركته في سنة ١٨٠٩ تكاد تكون وليدة الظروف التي أدَّت إلى زعامته (١٨٠٥ - ١٨٠٧). بمعنى أنه اعتمد على وطنيته كرصيد لدى عامة الشعب وعلى شجاعته الفردية فلم يختر حلفاءه جيداً، فحلفاء الأمس من العلماء انحرفوا عن الطريق الوطني ولجأوا إلى المساومة، فبعثروا بذلك قوى الحركة الوطنية المصرية التي أخذ ينظر إليها الشعب المصري بأنها لا تمثِّل كامل إرادته في التحرِّر حينما انشقَّت على نفسها وبعد أن طغت على هذا الشعب قوة محمد علي المادية والمعنوية.

وبالإضافة إلى هذا كله فإن عمر مكرم لم يستوعب جيداً دروس التاريخ ولم يتكيَّف مع المتغيرات، بل اكتفى بما ظنه رصيداً كبيراً عند الشعب، فانطلق من تجربة (١٨٠٥ - ١٨٠٧) في صراعه مع محمد علي، وهو يظن أن باستطاعته تحريك جماهير الشعب المصري متى أراد، ولكن حماسه المتدفق هذا كان السبب في نكسة سنة ١٨٠٩.

ومهما يكن من أمر فإن القوى الوطنية المصرية بدأت تتراجع حينما راهنت على محمد علي وساندته ورفعته إلى حكم مصر بوجه انكلترا، أي أنها استعانت بقوة أكبر منها ضد عدوها الرئيسي، لذلك فإن هذه القوة استفادت من هذا الدور فاحتوت جهود الحركة الوطنية المصرية أولاً، ثم ألغتها تماماً في سبيل بناء مصر جديدة بكيان ذاتي مستقل عن محيطه القومي ومتناسي لدوره الوطني القديم، وهذا ما تم في عهد محمد علي الذي أراد بناء الدولة الحديثة في مصر ومن ثم بناء أمة مصرية جديدة، فخسر بذلك الشعب المصري وخسر الشعب المصري بسبب ذلك مصر كلها حينما داهمته موجة الاستعمار الأوروبي في عهد خلفاء محمد علي، الذين أطلقوا على المصريين تسمية «الفلاحين»[1] احتقاراً. وبذلك ارتكب محمد علي غلطة عمره السياسي حينما ألغى دور الحركة الوطنية في بناء دولته الحديثة خشية أن يثور الشعب بوعيه المتطوِّر

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية، ص ١٢ - ١٧.

عليه وعلى عائلته، لذلك لم يسمح للمصريين بالدخول إلى مدرسة الضباط التي أنشأها ولا أن يترقّوا في مسائل الجندية. من هنا فقد نظر إلى المصريين على أنهم أدوات العمل في الحقل والمصنع والجيش والمادة التي يصنع منها مجده، حتى إذا حاول المصريون أن يتطلعوا إلى أبعد من هذا بمشاركتهم في حكم وطنهم في سبيل خدمة مجتمعهم الوطني كان حاكم مصر يسعى لردهم إلى القالب الذي صنعه لهم بحيث يصبحون فيه مادة صنع مجده فقط، مسيّرين من قبله دون أن تكون لهم أية مشورة أو أية كلمة تقريرية في صنع مستقبلهم السياسي.

حتى أنه خشي في صراعه مع الدول الأوروبية أن يعتمد على المصريين خشية أن يضطره هذا الاعتماد إلى النزول عن قدر من سلطانه للحركة الوطنية المصرية.

وعلى أية حال لم يكن اختزال محمد علي لدور الحركة الوطنية في بناء الدولة الحديثة يرجع فقط إلى أنه كان قوة مادية أكبر من قوى هذه الحركة ولكن هذا الإلغاء لدورها يعود إلى عوامل داخلية فيها، فهي لم تكن تكتلاً سياسياً واحداً وإنما كانت جماعات دينية ومدنية تتجمع حول شيخ أو زعيم، فاستفاد محمد علي من تشرذمها هذا في تفريق وحدة صفها ومن ثم الاستفراد بها والقضاء عليها، لأنها لم ترتفع إلى روح العصر مستوعبة تحديات الظروف المستجدة بل اطمأنت إلى قوتها الدينية أو المحلية فاستكانت لمحمد علي وأعطته الفرصة لضربها، قبل أن تتبلور بذرة القومية التي لا تعني محمد علي إلاّ بمقدار مصلحته الخاصة، فعزل مصر عن محيطها العربي بعد أن أوهم الكثيرين أنه يسعى لإقامة دولة عربية كبرى بزعامة مصر.

والملاحظ أن محمد علي أراد إنشاء دولة مصرية تبتعد عن وطنيتها ومحيطها القومي بحيث يكون لها وضع سياسي خاص، وقد أراد بواسطتها إنشاء أمة مصرية خاصة وجديدة لا ترتبط بجذورها الوطنية القديمة وإنما تعتنق قومية مصرية جديدة بعثها محمد علي «مصر المصرية» المنفصلة عن كتلتها القومية العربية.

والحقيقة أن محمد علي لم يكن وحده الذي عزل مصر عن العالم العربي بسبب اعتماده على العصبية التركية بل تابع خلفاؤه هذه السياسة من بعده، خاصة بعد قرار التسوية الدولية (١٨٤٠ ـ ١٨٤١) وتمادى خلفاؤه في تعزيز اتجاه مصر المصرية الفرعونية الافريقية وهي السياسة التي ساعدت التسوية الدولية على تعميقها بهدف

سلخ مصر تماماً عن العالم العربي. وكانت سبباً في ضياع مصر بيد الاحتلال الانكليزي العسكري سنة ١٨٨٢.

ومع ذلك لم تستكن الفكرة الوطنية والعربية للاحتلال، لأن ما تطلّعت إليه مصر من بناء وطني وعربي متكامل منذ فشل عمر مكرم شعبياً سنة ١٨٠٩ وأحمد عرابي عسكرياً سنة ١٨٨٢ وسعد زغلول وطنياً سنة ١٩١٩، حقّقه جمال عبد الناصر الوطني المصري والقومي العربي من خلال ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ التي كانت ثورة وطنية قومية سارت في الخطين، وتعتبر نقطة انطلاق للوطنية المصرية وللقومية العربية بشكلها المعاصر. وبذلك عادت مصر الوطنية إلى أمها العربية، متابعة طريقها الطبيعي في إعادة توحيد الأسرة العربية الكبرى القوية بعد أن ضعفت وتفرّقت بضعف مصر وتقوقعها على ذاتها خلال عهدي المماليك والأتراك العثمانيين، وموقظة فكرة القومية العربية من سباتها ومنطلقة بها ومعها في المجال الدولي والانساني، فسدّت مصر بذلك فراغ الزعامة العربية الواحدة.

وبالاستناد إلى ما تقدّم كله أو بعض ما تقدّم كله يمكن القول أن المقاومة المصرية وإن كانت ردة فعل عضوية في عهد الاحتلال الفرنسي، إلّا أنها أدّت إلى تشكيل الزعامات المحلية في الريف والمدن وتحدّت بهذه الزعامات الغزو الانكليزي ومحمد علي، وبرهنت أنها كانت حركة ذاتية مستمدة أصولها من أرض مصر وتراث مصر وشخصية مصر. وبذلك كانت المحرّك الحقيقي للتاريخ المصري الحديث ونجحت في إرساء أسس العمل الوطني الذي بنت عليه مصر حركتها الوطنية المتكاملة في كل نواحيها فيما بعد، وهذا هو دور الشعب الحقيقي في امتلاكه كل مقدرات تاريخه بيده.

وتبقى الكلمة الأخيرة بأن المقاومة المصرية أو بداية الحركة الوطنية المصرية ما بين (١٧٩٨ - ١٨٠٧) أعطت لمصر هويتها الوطنية بعد أن كانت مصر بلا هوية.

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر العربية :

١ ـ الترك نقولا (ت ١٨٢٨).
*ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار العربية والبلاد الشامية ـ دار الطباعة السلطانية ـ طبع باريس ١٨٣٩.

٢ ـ الجبرتي عبد الرحمن (ت ١٨٢٦).
*عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٤ جـ.
مطبعة بولاق ـ القاهرة ١٩٠٤/١٣٢٢.
* مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس. ٢ جـ.
دار المعارف. مصر ـ بدون تاريخ.

٣ ـ الطهطاوي رفاعة رافع (ت ١٨٧٣).
*تخليص الابريز إلى تلخيص باريز.
القاهرة ١٩٠٥/١٣٢٣
مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب المصرية.
مطبعة شركة الرغائب ـ القاهرة ١٩١٢/١٣٣٠.

٤ ـ مبارك علي (ت ١٨٩٣).
*الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ـ ٢٠ جـ.
طبعة بولاق بمصر ١٣٠٥ ـ ١٨٨٧/١٣٠٦ ـ ١٨٨٨.

٢ ـ المراجع العربية:

١ ـ ابن خلدون *المقدمة.
دار البيان ـ لبنان ـ (بدون تاريخ).

٢ ـ أبو حديد (محمد فريد) *السيد عمر مكرم.
القاهرة ١٩٥١.

٣ ـ اسماعيل (علي سعيد) *المجتمع المصري في عهد الاحتلال البريطاني.
(١٨٨٢ ـ ١٩٢٣) البناء الاقتصادي وقوى التشكيل السياسي
القاهرة ١٩٧٢.

٤ ـ أنيس (محمد) *مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني.
القاهرة ١٩٦٢.
*الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٩١٤).
مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة (بدون تاريخ).
*التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث.
دار النهضة العربية ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٥ ـ حراز (رجب) *المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني. (١٥١٧ ـ ١٨٨٢).
القاهرة ١٩٧٠.

٦ ـ الحريري (علي) *الحروب الصليبية.
تحقيق عصام محمد شبارو. بيروت ١٩٨٨.

٧ ـ الحصري (ساطع) *آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع.
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٠ (الطبعة الثانية).
*البلاد العربية والدولة العثمانية.
دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٥ (الطبعة الثالثة).

٨ ـ الخازن (فريد وفيليب) *المحررات السياسية.
جونية ١٩١٠.

٩ ـ خوري (اميل) واسماعيل (عادل) *السياسة الدولية في الشرق بالعربي جـ ١.
بيروت ١٩٥٩.

١٠ ـ رافعي (عبد الرحمن) *تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة.
الطبعة الأولى ـ القاهرة ١٩٦٣.
*تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر.
الطبعة الرابعة ـ مصر ١٩٥٥.
*عصر اسماعيل ـ جـ ١ و ٢.
مصر ١٩٣٢.
*عصر محمد علي.
الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٥١.

١١ ـ رافق (عبد الكريم) *بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨).
دمشق ـ الطبعة الثانية ١٩٦٨.

١٢ ـ رستم (أسد) *آراء وأبحاث.
منشورات الجامعة اللبنانية ـ قسم الدراسات التاريخية ـ بيروت ١٩٦٧.
*بشير بين السلطان والعزيز جـ ١ و ٢.
طبعة ثانية ـ بيروت ١٩٦٦.

١٣ ـ رياض (زاهر) *استعمار القارة الافريقية واستقلالها.
القاهرة ١٩٦٦.

١٤ ـ زايد (محمود) *من أحمد عرابي إلى جمال عبد الناصر.
(الحركة الوطنية المصرية الحديثة)
الطبعة الأولى ـ بيروت ١٩٧٣.

١٥ ـ زين (زين) *الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان.
دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧١.

١٦ ـ زقلمة (أنور) *المماليك في مصر.
القاهرة (بدون تاريخ).

١٧ ـ زيدان (جرجي) *تاريخ مصر الحديث ـ جـ ١.
القاهرة ١٩٢٥ (الطبعة الثالثة).
*تاريخ مصر الحديث ـ جـ ٢.
مطبعة الهلال بمصر ـ ١٩١١.

١٨ ـ سحاب (فكتور) *العرب وتاريخ المسألة المسيحية.
دار الوحدة ـ بيروت ١٩٨٦.

١٩ ـ السروجي (محمد محمود) *الجيش المصري في القرن التاسع عشر.
مصر ١٩٦٧.

٢٠ ـ سعودي (محمد عبد الغني) *الجغرافيا والمشكلات الدولية ـ
بيروت ١٩٦٨.
*الوطن العربي ـ
القاهرة ـ بدون تاريخ.

٢١ ـ سعيد (أمين) *تاريخ مصر السياسي.
(من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى انهيار الملكية ١٩٥٢).
مصر ١٩٥٩.

٢٢ ـ الشافعي (شهدي عطية) *تطور الحركة الوطنية المصرية. (١٨٨٢ ـ ١٩٥٦).
الطبعة الأولى ١٩٥٧.

٢٣ ـ شبارو (عصام) *تاريخ بيروت. (منذ أقدم العصور وحتى القرن العشرين).
بيروت ١٩٨٧.

٢٤ ـ شبيكة (مكي) *تاريخ شعوب وادي النيل.
(مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي.
بيروت ١٩٦٥.

٢٥ ـ شفيق (أحمد) *حوليات مصر السياسية ـ تمهيد ـ جـ ١ .
القاهرة ١٩٢٦ .
٢٦ ـ شكري (محمد فؤاد) *الحملة الفرنسية وظهور محمد علي .
مطبعة المعارف بمصر (بدون تاريخ) .
*عبد الله جاك متو وخروج الفرنسيين من مصر .
دار الكتاب العربي مصر ١٩٥٢ .
*مصر في مطلع القرن التاسع عشر . (١٨٠١ ـ ١٨١١) .
الجزء الثالث القاهرة ١٩٥٨ .
*بناء دولة مصر محمد علي .
دار الفكر العربي ١٩٤٨ .
٢٧ ـ الشناوي (عبد العزيز محمد) * عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية .
مصر ١٩٦٧ .
٢٨ ـ الشيال (جمال الدين) *تاريخ الترجمة والحركة الثقافية عصر محمد علي .
دار الفكر العربي ـ مصر ١٩٥١ .
٢٩ ـ صايغ (أنيس) *الفكرة العربية في مصر .
مطبعة هيكل الغريب ـ بيروت ١٩٥٩ .
٣٠ ـ صبحي (حسن) *اليقظة القومية الكبرى .
بيروت ١٩٦٦ .
٣١ ـ صبري (محمد) *تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم .
دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٦ .
٣٢ ـ صبيح (محمد) *كفاح شعب مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين .
الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٦٦ .
٣٣ ـ طربين (أحمد) *أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية (١٨٤٢ ـ ١٨٦١) .
الطبعة الأولى ١٩٦٦ .

٣٤ ـ عمر (عمر عبد العزيز) *دراسات في تاريخ مصر الحديث. (١٧٩٨ ـ ١٩١٤).
الاسكندرية ١٩٧٢.
*عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك: دراسة مقارنة.
منشورات جامعة بيروت العربية ـ بيروت ١٩٧٨.

٣٥ ـ عبد الكريم (أحمد عزت) *دراسات في تاريخ العرب الحديث
بيروت ١٩٧٠.
*تاريخ التعليم عصر محمد علي ـ
القاهرة ١٩٣٨.

٣٦ ـ عبد الناصر (جمال) *الميثاق.
منشورات اتحاد جامعة بيروت العربية ١٩٧٠.

٣٧ ـ عبده (ابراهيم) *تاريخ الوقائع المصرية. (١٨٢٨ ـ ١٩٤٢).
بولاق ١٩٤٢.

٣٨ ـ عبده (محمد) *مذكرات الامام محمد عبده.
تحقيق وتعليق طاهر الطناحي ـ دار الهلال.

٣٩ ـ علي (جواد) *المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام.
دار النهضة ـ بغداد ١٩٧٦.

٤٠ ـ عوض (أحمد حافظ) *فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت في مصر.
القاهرة ١٩٢٥.

٤١ ـ عيسى (صلاح) *الثورة العرابية.
الطبعة الأولى ـ بيروت ١٩٧٢.

٤٢ ـ غرايبة (عبد الكريم) *سورية في القرن التاسع عشر.
القاهرة ١٩٦٢.

٤٣ ـ غربال (محمد شفيق) *العوامل التاريخية في بناء الأمة العربية.
القاهرة ١٩٦١.
*محمد علي الكبير. (اعلام الاسلام)
القاهرة ١٩٤٤.

٤٤ ـ قدورة (زاهية) *تاريخ العرب الحديث.
بيروت ١٩٦٨ .
٤٥ ـ قرقوط (ذوقان) *تطور الفكرة العربية في مصر. (١٨٠٥ ـ ١٩٣٦).
بيروت ١٩٧٢ .
٤٦ ـ كامل (مصطفى) *المسألة الشرقية.
مصر ١٩٠٩ .
٤٧ ـ كفافي (محمد عبد السلام) *المجتمع العربي.
بيروت ١٩٦٧ .
٤٨ ـ مرشدي (محمد عصام) *الثورة العرابية وأثرها في تطور المجتمع ونهضته.
مصر ١٩٥٨ .
٤٩ ـ مصطفى (أحمد عبد الرحيم) *مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ الى ١٨٨٢ .
القاهرة ١٩٦٥ .
٥٠ ـ مؤنس (حسين) *الشرق الاسلامي في العصر الحديث.
الطبعة الثانية ١٩٣٨ .
٥١ ـ نوار (عبد العزيز) *تاريخ العرب المعاصر (مصر والعراق).
بيروت ١٩٧٣ .
٥٢ ـ وحيدة (صبحي) *في أصول المسألة المصرية.
مكتبة الأنجلو ـ القاهرة ١٩٥٠ .
٥٣ ـ أحد أعضاء الجمعيات العربية السرية *ثورة العرب ضد الأتراك.
تحقيق عصام محمد شبارو
دار مصباح الفكر ـ بيروت ١٩٨٧ .

٣ ـ المراجع المعربة:

١ ـ انطونيوس (جورج) *يقظة العرب.
ـ ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس ـ
الطبعة الثالثة ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٩ .

٢ ـ جوان (ادوارد) *مصر في القرن التاسع عشر (كتبه ١٨٤٧).
تعريب محمد مسعود ـ القاهرة ١٩٢١.

٣ ـ حوراني (البرت) *الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩.
تعريب كريم عزقول.
دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٦٩.

٤ ـ رتشتين (تيودور) *فصول من المسألة المصرية.
تعريب عبد الحميد العبادي ومحمد بدران ـ ١٩٥٦.

٥ ـ كرومر (لورد) *الثورة العرابية.
تعريب عبد العزيز عرابي (نجل احمد عرابي).
الطبعة الأولى ١٩٥٨.

٦ ـ كلوت بك (أ. ب) *لمحة عامة إلى مصر جـ ١ و٢. (كتب ١٨٣٩).
تعريب محمد مسعود.
القاهرة. بدون تاريخ.

٧ ـ مس لاندز (دافيد) *بنوك وباشوات.
تعريب عبد العظيم أنيس.
دار المعارف بمصر ١٩٦٦.

٨ ـ هيرولد. (كرستوفر) *بونابرت في مصر.
(نيويورك ١٩٦٢).
تعريب فؤاد اندراوس ومراجعة محمد أنيس القاهرة.

٤ ـ المصادر الأجنبية :

1 - ADER. J. J. * **Histoire de l'expédition d'Egypte et de Syrie.** Paris. 1826.

2 - BERTHIER * **Mémoire de Maréchal Berthier.** Campagne d'Egypte lére partie. Paris 1827.

3 - BULWER, Sir Henry Lytton * **The Life of Henry John Temple,** Viscount Palmerston, with Selection from his Diaries.

4 - CHURCHILL Colonel * **Mount Lebanon,** (a Ten year's Residence from 1842 to 1852). Vol. 1. London 1853.

5 - DE VAULABELLE, Achille * **Histoire scientifique et militaire de l'expédition française en Egypte** T 9. Paris 1832.

6 - ERNOUFF, le Baron * **Le Général Kléber.** Paris 1867.

7 - GALLAND. A * **Tableau de l'Egypte pendant le séjour de L'Armée Français** Vol. 1. Paris 1859.

8 - GOUIN, Edouard * **L'Egypte au dix-neuviéme siécle,** histoire militaire et politique, anecdotique et pittorresque de Méhémet Ali, Ibrahim Pacha, Soliman Pacha (Colonel Séves). Paris. 1847.

9 - LAMARTINE * **Voyage on Orient** Vol 1. Paris 1859.

10 - MENGIN, Félix * **Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly** vol. 1 Paris 1823.

11 - NELSON — * **The Dispatches and letters office Admiral Lord Vescount Nelson** with notes by sir Nicolas Harris, Vol 111. London 1845.

12 - REYBAUD. L — * **Histoire scientifique et militaire de l'expédition Francaise en Egypte** Vol. 111. IV-VI. Paris. (1830-1836) 10 vols.

13 - ST. JOHN. J. A. — * **Egypt and Mohammed Ali.** Vol II. London. 1834.

14 - THIERS. A. — * **Histoirede la Revolution Francaise** T. 10 Paris 1865.

15 - THÉOPHILE, Larallée — * **Histoire des Français** T4. Paris. 1865.

٥ ـ المراجع الأجنبية :

1 - ANTONIUS, Georges — * **The Arab Awakening** 1939.

2 - DOUIN, Georges — * **Mohamed Aly Pacha du Caire** (1805 - 1807). Correspondance des Consuls de france en Egypte (Recueillie et publiée par Douin G). Le caire 1926.
* **L'Angleterre et L'Egypte.** La politique Mamluke (1803 - 1807) T. 2. Caire. 1930.
* **La mission du Baron de bois le comete:** l'Egypte et la Syrie en 1833.

3 - GHERBAL, Shafik — * **The Begінings of the Egyptian** Question and the Rise of Méhémet Ali. London 1928.

4 - GUEMARD, Gabriel — * **Les Reformes en Egypte d'Ali Bey El-Kébir à Méhémet Ali** (1760 - 1848). Caire 1936.

5 - HEROLD. J. Christopher — * **Bonaparte in Egypte.** London 1962.

6 - HUNTER. W. P — * **Expedition to Syria** vol. 1.

7 - KÉRR, Malcolm — * **The Arab Cold war.** (1958-1964). 1965.

8 - KIRK, A — * **Short History of the Middle East** 1959.

9 - LOCKART, John Gibson * **The History of Napoleon Bonaparte** 1912.

10 - MASPERO * **Ruines et Paysages d'Egypte.** Paris 1910.

11 - MILNER, Alfred * **England in Egypt.**

12 - PAJOL, Le Comte * **Kléber, sa né, sa correspondance.** Paris. 1877.

13 - RABBATH, Edmond * **Mahomet, prophéte arabe et fondateur d'état.** Beyrouth 1981.

14 - SABREY, Mohammed * **L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali** et La question d'orient (1811-1849) Paris. 1930.

12 - TEMPERLEY. H * **England and the Near East.** London 1936.

16 - WARMMINGTON, Cary M. * **The Encient Explores,** Pelican. 1963.

17 - ZAYID, M. * **Egupt's Struggle for Independance,** Beirut, 1965.

فهرس الأعلام والأماكن

١ ـ الأعلام

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

٢ ـ الأماكن

فهرس الكتاب

الصفحة